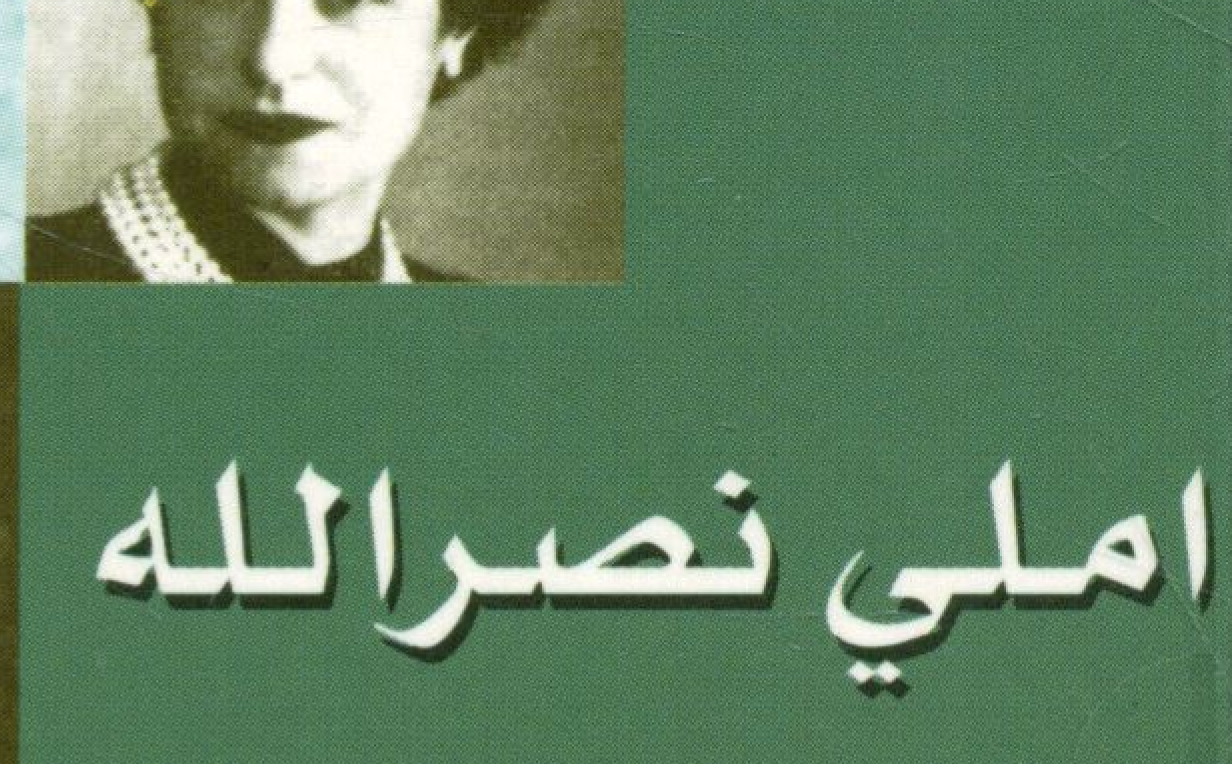
نســاء رائــدات



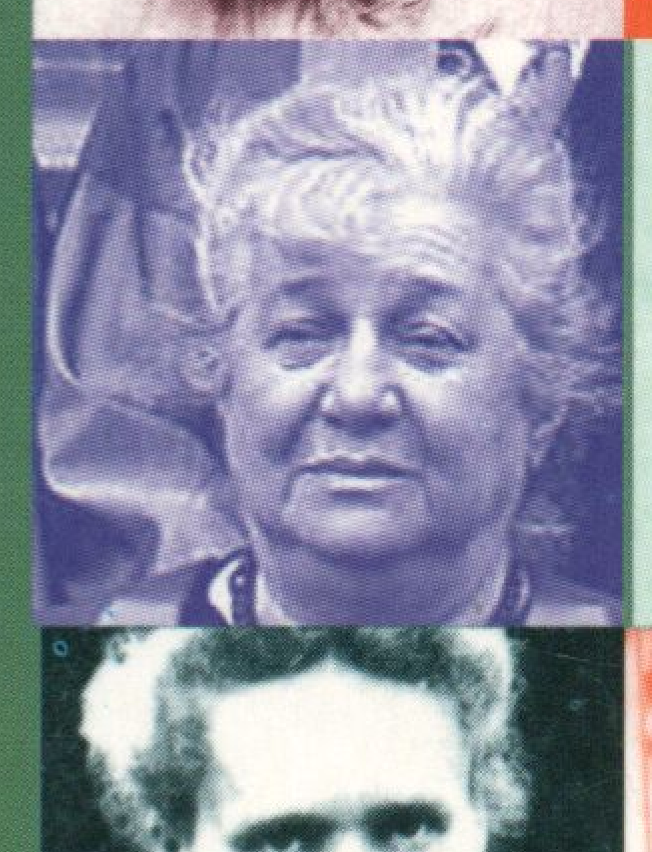
٤

من الغرب

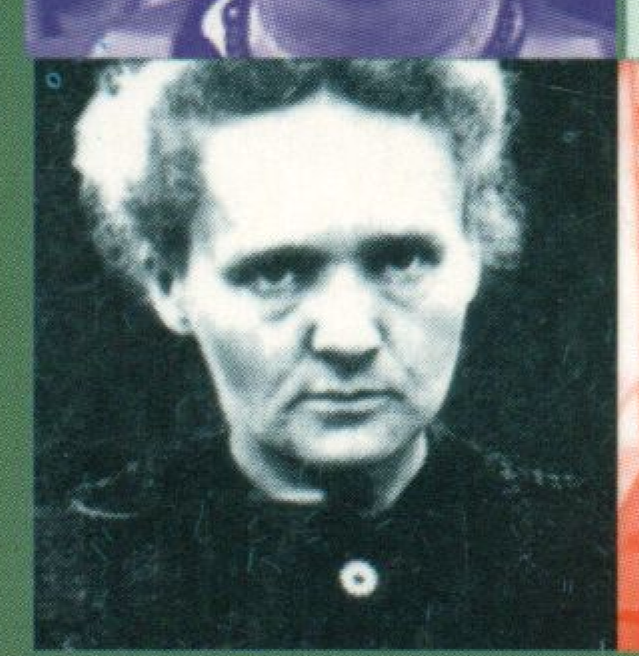




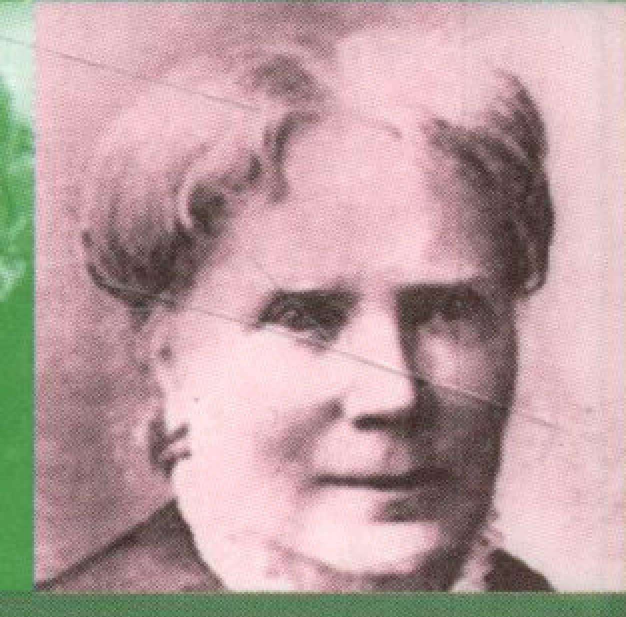
املي نصرالله













نساء رائدات

مِنَ الغرب

(٤)

إمِلي نصرالله

نساء رائدات

مِنَ الغرب

(٤)

الدار المصرية اللبنانية

تصميم الغلاف: وسيم قيس

الطبعة الأولى

٢٠٠١



الدار المصرية اللبنانية طباعة . نشر . توزيع

16 شارع عبد الخالق ثروت تلفون: 3936743 - 3910250 فاكس: 3909618 00202 ص.ب: 2022 القاهرة

AL-Dar AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH Printing - Publishing - Distribution

16 Abd El-Khalek Sarwat st. P.O.Box: 2022 Cairo - Egypt Tel: 3910250 - 3936743 Fax: 00202 3909618

الدكتورة جيمس باري



«بعد موته، أخبروني بان الطبيب كان امرأة...».

موضوعي هذا يحتاج إلى مقدمة. فإن الشخصية التي اخترتها من بين النساء اللواتي نجحن، خصوصاً في فصول الريادة، لها قصة تختلف عن كل ما سبق وكتبته من حكايات.

وأنا أعرف، من سير النساء، أَنهن واجهن، في بدء كل طريق، أنواعاً لا تحصى من المتاعب. أحياناً واجهنها بشجاعة، مضحيات بالرفاهية، من أجل وقفة شموخ وخطوة نجاح.

وأعرف من حكايات النساء، أن هناك من لجأن إلى استعارة أسماء الرجال في ممارسة أعمالهن وخصوصاً الكتابة. وعندنا أبرز مثال على ذلك **جورج صاند**، الكاتبة الفرنسية الرائدة، والتي لم تكتفِ باستعارة اسم الرجل، بل اختارت زي الرجال لأنه، حسب تبريرها، يسمح لها بقدر أكبر من الحرية.

وهناك امرأة أخرى ناجحة، من تاريخنا العربي، بدلت زيها وارتدت لباس الفرسان، كي يفسح لها في مجال خوض المعارك الحربية، وأعني **خولة بنت الأزور**.

ولن أورد سوى هذين المثالين، تاركة للقراء البحث في بطون السير والحكايات، عن المصاعب والعقبات التي تخطتها الرائدات، لإِثبات وجودهن، ورفع لبنة جديدة في بناء الإِنسانية المتطورة.

* * *

وأعود إلى قصتي عنها... بل إلى قصتها... أجل، إنها أول امرأة مارست الطب في **كندا... والمرأة كانت** «**رجلاً**».

درست، وعملت، وتنقلت بين بلدان العالم، وهي متنكرة بزي الرجل واسمه... وقد نجحت في إخفاء شخصيتها الحقيقية عن الجميع، حتى اكتشفها أحد الأطباء، إبان مرضها، فكانت ترجو منه أن يكتم السر، بل كانت تطلب منه أن يقسم اليمين على انه لن يفشي الخبر.

طريفة قصتها؟...

أجل! وفريدة بين قصص النساء، بل والرجال. وإن كانت تحمل إلينا أي مغزى، من بُعد مائتي سنة، فهو عذاب المرأة الموهوبة، المتفوقة، في عالم حددها بحدود ضيقة، وألبسها أدواراً معدّة سلفاً، وأبرز صورتها، على أنها رمز الضعف والاتكالية والخمول.

* * *

ولنبدأ، تفتيق غشاوات الحكاية: اسمها **جيمس** (هذا اسم رجل) **ميرندا** (اسم امرأة) **ستيوارت باري** (اسم الأب أو العائلة) مولودة في بريطانيا عام ١٧٩٠ . وعملها كان: **الطبيب الرسمي** للجيش البريطاني.

هل يقول ذلك شيئاً؟...

طبعاً، بل يفصح عن أشياء. أول مرة دخلت فيها **كندا** (وهي إحدى دول **الكومنولث البريطاني**) كانت عام ١٨٥٧ . وكان قد مضى على ممارستها الطب حوالى الأربعين سنة، وبالطبع، تحت اسم رجل.

في تلك السنة عينت **مراقباً صحياً عاماً** لمستشفيات **كندا**. أي أنها انتدبت لتكون «**رئيس**» الهيئة الطبية فيها... فهل يعقل أن يوكل منصب كهذا، إلى امرأة؟...

وأي امرأة؟

طولها لا يزيد على مائة وخمسين سنتيمتراً، نحيلة القد، حمراء الشعر، حادة الطبع وشديدة الحساسية، خصوصاً إذا تعرض لها أحدهم بإهانة، فإنها تدعوه إلى منازلتها، شأن الفرسان في زمانها.

وكانت ترتدي بزة عسكرية مفخمة. وتجز شعرها، إسوة بالرجال، وترفع الياقة عالياً، حتى لا يبدو من رأسها سوى شرفة عينيها الكبيرتين.

* * *

درست الطب في **جامعة أدنبره**. وقد دخلتها باسم شاب. ولا أحد يعرف كيف تمكنت من تحقيق ذلك، إلا أن كتّاب سيرتها يرجّحون أن ذلك تم بفضل عمها الفنان **جيمس باري**، عضو الأكاديمية الملكية، إذ إن محيطه الأرستقراطي سهل لها دراسة ابتدائية وثانوية راقية.

وكان الرجل مشهوراً، وأستاذاً في أكاديمية الفنون، لكنه خرج منها طرداً لانتقاده أحد زملائه. إلى ذلك، كان الرجل محباً للعلم، منفتحاً، يحترم المرأة، ويساهم في تشجيعها كي تحقق ذاتها. وكان من أتباع **وولستون كرافت**، وهي أول امرأة في التاريخ المعاصر وضعت كتاباً عن مبررات إعطاء المرأة حقوقها.

إن فتاة تنشأ في مثل هذا الجو، سوف تحب العلم، بالطبع؛ إنما،

وللأسف الشديد، توفي هذا العم الفنان قبل انتقال الصبية إلى **جامعة أدنبره**، وهذا ما جعلها تختار اسمه اسماً لها، مما سهل الأمور في وجهها.

كذلك في حياة الدكتورة أشخاص آخرون هم: **السيدة بالكلي**، **والدكتور فراير والجنرال فرانسيسكو دو ميرندا**، وهو صديق لعائلتها، وقد استعارت شطراً من اسمه اضافته إلى اسمها المستعار. هذا الجنرال، كان يملك أغنى مكتبة في لندن، وكانت تضم مجموعة نادرة من كتب الطب. ويقال إِنه فتح الباب للطبيبة الصغيرة كي تستفيد من مكتبته.

ويبقى اللغز الكبير: من تكون هذه الطبيبة؟ ابنة من؟

هناك من يعتقد أنها ابنة السيدة **بالكلي**، التي رافقتها إلى **أدنبره**. وبين الأوراق المحفوظة عن الفنان **باري** ورقة تحمل مرثية كتبتها «**الآنسة بالكلي**» كما عثر على رسالة من **جيمس باري** الشاب إلى الجنرال **ميرندا** جاء فيها: «**ليس في أدنبره من يعرف الآنسة بالكلي**». ثم ترجو منه أن يكون هو، **والدكتور فراير**، أكثر حرصاً حين يذكران هذا الاسم...

فهل كانت تلك مرحلة الانتقال؟ أي مرحلة الانتقال النهائي لتخرج من ثوب المرأة وجلدها، وتلبس شخصية الرجل؟ ربما... نقولها مثلما قالها كتّاب سيرتها، ثم نتابع خط مسيرتها التصاعدية.

* * *

عام ١٨١٦ أُرسلت الدكتورة **جيمس** إلى **جنوب أفريقيا**. وإلى مدينة **الكاب** بالذات. وكانت قد خدمت في **انكلتره** مدة ثلاث

سنوات، حقّقت خلالها، نجاحاً باهراً. ولا عجب في ذلك، إذ تدربت على .يد الجراح الشهير في حينه **السير أشلي كوبر**. فقد ارتقت بسرعة من رتبة مساعد جراح إلى مراقب طبي، ثم أصبحت الطبيب الخاص بالحاكم وعائلته، وذلك بعدما أنقذت حياته من حمّى التيفوس. وازدادت شهرتها، عندما قامت بأول عملية ولادة قيصرية، فأنقذت الأم وطفلها... هذا في زمن لم يكن يعترف فيه للمرأة بأية موهبة، بل تعتبر جديرة بدراسة الخياطة، وربما الموسيقى والشعر.

بالطبع فرحت بالنجاح، وامتطت صهوته، لتحقق المزيد من الانتصارات، مقتنعة بدور الرجل الذي تجسدته، وبات درعها الحامي.

ويروى أنها كانت في بعض الحالات، تبالغ في تمثيل دور الرجل، فتقفز بدلاً من أن تمشي مشياً طبيعياً، كما استعارت من الرجل طموحاته وعدوانه وعنفه... وكان ذلك يتنافى مع شكلها عامة، أي مع الخدين الناعمين، والساقين القصيرتين واليدين اللتين تشبهان أيدي الأطفال. هناك مظهر واحد، كان يقربها من مظهر الرجولة، وهو أنفها الطويل، الذي جعلها تبدو غريبة.

* * *

يصفها **اللورد أبرت مارل** وصفاً طريفاً، لدى زيارته مدينة الكاب، إذ يقول: «**قابلت طبيباً يلفت الأنظار بشذوذ شخصيته، إنه الدكتور جيمس باري طبيب الجيش والحاكم؛ وكنت قد سمعت الكثير عن هذا الإنسان المعتد بنفسه، والمحظوظ لدى السلطة، مما جعلني أتوق الى التعرف به، حتى جاء يوم جلست بقربه إلى المائدة في إحدى المآدب، وقابلني ولد غير ملتح، عمره من عمري شكله سكوتلندي**

بلا شك، ذو شعر أحمر وخدين بارزين. وكانت حركاته وطباعه تشبه حركة الاناث وطباعهن. وبدا عليه أنه في محاولة دائمة، كي يتخطى ذلك، بل ويخفيه. أما حديثه، فكان متفوقاً عما نسمعه في مناسبات كهذه».

ولم يكن اللورد الشخص الوحيد الذي علّق على غرابة الطبيب، فالجميع كانوا يتجنبونه، كي لا يزعجوه أو يجرحوا شعوره المرهف.

* * *

ولم تكن الطبيبة تراعي أحداً، وتسير عكس التيار، وهذا ما جلب لها الكثير من المتاعب، ولم تراع صداقة الحاكم، بل راحت تنتقد تقصير المؤسسات الطبية، خصوصاً مؤسسة مرضى الجذام. فطالبت لهؤلاء التعساء بالغذاء الكافي، والنظافة، والمعاملة اللطيفة.

وبدلاً من أن يصغي إليها المسؤول عن المؤسسة، هدد بالاستقالة! لكنها برغم ذلك، أدخلت الكثير من الاصلاحات وما ان انتهت من هذه المهمة، حتى انتقلت إلى إصلاح أوضاع السجون، والمصحات العقلية. وكانت طريقتها في النقد والهجوم، عنيفة، مما أكسبها عداوات كثيرة. وكانت النتيجة أنها استفاقت ذات صباح لتجد نفسها بلا وظيفة... لا، لم تطرد، إنما ألغي مكتب المراقبة الصحية، نهائياً. وكان عليها، إذا شاءت أن تتابع العمل، أن تبقى بين مجموعة من الناس الذين لا تكن لهم المحبة. وبناء عليه، انتقلت من **الكاب** إلى **جزيرة موريشاس** لتعمل كطبيبة.

وهنا، أيضاً، برزت لا في مهنة الطب وحسب، بل وفي حملاتها الاصلاحية. ولم تكن تكترث إذا حسم من راتبها، أو تصدى لها

الأعداء. وظلت تكتب التقرير تلو الآخر، وترسل تقاريرها إلى الرئاسة العليا، وبالطبع، ذلك يزيد عدد الأعداء، حتى أن حماستها أوصلتها إلى الاعتقال والسجن، ثم أعيدت إلى **بريطانيا**.

* * *

لم تكن تغادر أي مكان، إلا بعد أن تثير حولها الدخان، وتترك ضحاياها على ساحة المعركة. وبرغم اعتراض الأعداء، كانت دائماً تعود إلى العمل، وبرتبة أعلى.

ويعتقد الذين عرفوها ان قوتها مستمدة من صداقاتها لدى الطبقة الأرستقراطية. إنما هذا وحده لم يكن كافياً لولا تحليها بالنزاهة والمهارة والطموح.

وزارة الصحة كانت على علم تام بصعوبة شخصية **باري**، إلا أن رؤساء الدكتورة كانوا يقدّرون مواهبها، ويعتبرونها من أذكى «رجال» عصرها. وأهم من هذا كله، كانوا بحاجة إلى مهارتها.

* * *

من **موريشاس** إنتقلت إلى **جامايكا** وشهدت مرحلة عصيان الزنج فيها، ثم لم تلبث أن غادرت إلى **سانت هلينا وترينيداد فمالطا وكورفو والقرم**، وذلك قبل أن تبحر إلى **كندا**، التي وصلت اليها، ولها من العمر ستون سنة. وبرغم تقدمها في العمر، ظلت تبدو أشبه بصبي صغير، نحيل القد. وقد ازداد طول أنفها، كما أن السيف الذي كانت تشكه في خصرها، لم يكن منسجماً مع قوامها، فكانت، حين تسير، تجره جراً، ويلامس طرفه الأرض.

وفي، أثناء هذه المرحلة، بالغت في اللباس الرسمي، فأضافت إلى قبعتها الريش، ورفعت الياقة عالياً، وعرضت أكتاف المعطف، كما أن مناخ **كندا** البارد، جعلها ترتدي الفراء، فكانت تبالغ في شرائها وارتدائها. وهي تنتقل في عربة الخيل الحمراء، المزينة بأجراس فضية، رافلة بالفراء الكثيفة، كان هذا المنظر يلفت الانتباه، وكي تزيد من غرابة الموقف، حرصت على أن يرافقها خادم وسائق عربة وحارس، وكلب مدلل.

وكان الناس، الذين يقفون في الشارع يتأملون هذه الأعجوبة يتساءلون بصمت: «ماذا بعثت إلينا دولة صاحبة الجلالة؟»...

لكن مثل هذا التساؤل، لم يلبث أن تلاشى، عندما لاحظوا جديتها في العمل. فقد بدأت بتحسين أوضاع التغذية في معسكرات الجنود، وفي المستشفيات... وبينما هي تكتفي من الطعام بتناول الحليب والفاكهة والخضار، رأت أنه من الضروري أن يضاف اللحم إلى وجبات الجنود، وأشرفت بنفسها على إعداد لوائح الطعام. ومن التغذية، انتقلت إلى الاصلاحات العامة، خصوصاً النظافة، فقد هالها أن تجد الاهمال في المستشفيات، وأجرت تجديداً لكل ما وصلت إليه يدها، بما في ذلك الفرش والوسائد.

ورقم الأعداء، ظل يتصاعد. ولم يكن بين المدراء والموظفين من يطيق حضورها. لكنها عوضت نفسها منهم بصداقتها مع أفراد الجيش الذين كانوا يحبونها ويقدرونها. وتدخلت **باري** في صميم حياتهم اليومية، حين لاحظت أن المتزوجين من الجنود، ينامون في القواويش العامة، فسعت لأن يحصل كل واحد على غرفة خاصة به وبزوجته.

تزامنت مرحلة الاصلاح، مع حملة أخرى شنتها رائدة التمريض في العالم **فلورانس نايتنغال** التي اكتسبت شهرتها من عملها في **جزيرة القرم** إبان الحرب. إنما كان أسلوبها الاصلاحي مختلفاً، إذ استخدمت اللباقة والحنكة في سبيل بلوغ الغاية.

والتقت **فلورانس** بالدكتورة **باري** في **القرم**، ووقفت مدة في الشمس، وهي تصغي إلى خطاب تأنيب طبي من فوق ظهر الحصان. وكتبت **فلورانس** عن اللقاء: «**أبقاني واقفة مدة طويلة، في جماعة من الجند وأفراد البعثات. وكان الجميع يتصرفون معي بلطف، خلال وقفة التأنيب، بينما وحده، باري، كان في غاية الفظاظة. وبعد موته، أخبروني بأن هذا الطبيب كان امرأة... وفي رأيي كان (كانت) أقسى إنسان عرفته**».

وهذه شهادة امرأة لم تكن سهلة المراس. وقد تجمع الأعداء وتكاثروا في وجه **باري** لتفردها في اصدار الأوامر. وهذا ما جعلهم يرجمونها بعد موتها بحجارة ألسنتهم.

وفي **كندا**، برهنت الدكتورة عن قدرة خارقة. وبلغت أرفع مرتبة في عملها لكن المناخ لم يلائمها، فأصيبت بالتهاب الرئة، واشتد عليها المرض عام ١٨٥٩ مما اضطرها إلى العودة إلى **بريطانيا**.

والدكتورة التي كانت تشرف على علاج الجيوش، لم تكن تخشى شيئاً خشيتها المرض، وذلك مخافة أن يكشف سرها. وفي الواقع، أن حقيقتها اكتشفت حين كانت تعمل في **ترينيداد**. وهناك أيضاً مرضت، وظنت انها سوف تموت، لذا أوصت من حولها بأن تدفن من دون أن يتعرض أحد لنزع ملابسها. لكن زميلاً لها، زارها في

المستشفى، خلافاً لأوامرها، وكانت غاية الزيارة أن يخدمها خصوصاً بعدما دخلت في حالة غيبوبة. وما كاد يزيح الغطاء ليباشر بفحصها حتى اكتشف أن زميله **ليس رجلاً، بل... امرأة.** ولما استفاقت الدكتورة من غيبوبتها، رجت منه ان يحفظ السر. وظل السر محفوظاً حتى العام ١٨٦٥ حين التأم مجلس طبي وقرر أن صحتها لم تعد تساعدها على القيام بمهماتها. لكنها رفضت قرار المجلس واعتبرت أعضاءه من صغار الموظفين الذين لا يحق لهم اتخاذ مثل هذا القرار، وراحت تبعث الرسالة تلو الأخرى، وتحتج لدى كبار المسؤولين. لكن أحداً لم يصغ إليها. وعاشت ست سنوات في الضعف قبل أن تنتقل إلى رحمة ربها. وبموتها كشفت التقارير المزيفة عمداً وبدأت تحاك حولها القصص.

والتقارير التي تحمل اسمها المستعار **جيمس باري** بدأت بكتابتها منذ العام ١٨٠٩ - أي منذ دخولها **جامعة أدنبره** إلى أن تخرجت منها عام ١٨١٢ .

* * *

ويبقى السؤال الكبير والأهم عنها، هل كانت الدكتورة امرأة حقيقية؟...

إن الذي زاد القصة تعقيداً هو التقرير الذي كتبه الجراح في الجيش البريطاني، **الميجور ماكينون**، عن وفاتها، وختمه بتوقيعه، من دون أن يُخضع الجثمان لأي فحص، ولم يكن تصرفه مستغرباً، إذ كان بين الذين ناصبوها العداء. وجاء في التقرير أنها ماتت متأثرة بمرض الامعاء.

لكن السيدة **بيشوب**، التي كانت تعمل في المستشفى، نشرت تقريراً آخر، حين أقبلت على غسل الجسد، قبل الدفن، واكتشفت ان الدكتور لم يكن رجلاً بل امرأة. وأضافت زيادة على الآخرين: «**أن جسد الدكتورة يحمل آثاراً لحمل**»...

والمرأة كانت تعرف جيداً عما تتحدث فقد كانت هي أماً لتسعة أولاد، كما أنها كشفت على عشرات الأشخاص بحكم عملها. وكان لكلامها أثر كبير، وبدأ التساؤل بل الشك يحوم حول تقرير **ماكينون**. إلا أن هذا استطاع أن يتهرب من المسؤولية نظراً لنفوذه في الدوائر الرسمية...

ومن ثم، من كان يهتم لامرأة عاشت وحيدة، وماتت لغزاً؟...

وهكذا طوي ملف القضية. لكنه لم يختم على ذاكرة المعارف والأصدقاء، فراح كل واحد يعلن من موقعه، بأنه طالما شك في شخصية **الدكتور باري**. لكن جماعة أخرى رفضت تصديق الرواية، خصوصاً وأنها انطلقت عن امرأة جاهلة، وليست من طبقة الأشراف المتنفذين... كما أن الطب والمرأة، كانا في حينه، على طرفي نقيض، فكيف يصدق أن واحدة منهن تستطيع أن تدرس الطب، وتبلغ مرتبة التفوق، بل الامتياز؟...

* * *

إن هذه الرائدة، سبقت سواها من النساء، إلا أنها لم تمهد الطريق نهائيًّا، وبقي على المرأة، في كل بلد من بلدان الشرق والغرب، أن تعيش تجربة خاصة وقاسية، إذا هي اختارت دراسة الطب. وبدلاً من أن تحاط بالتقدير والاعجاب، كانت تعامل مثل أيَّة دخيلة متطفلة...

وبالطبع، لم تلجأ، عند حد علمنا، واحدة من الطبيبات الرائدات إلى الحيلة التي اعتمدتها الدكتورة **باري**، وربما كان السبب في حجم الأجسام المعافاة، والتي يصعب إخفاء معالمها، مهما تكاثفت طبقة الملابس... ثم ان خطوة كهذه تعتمد على جرأة وتصميم أضعاف ما تحتاجه طالبة الطب لمواجهة أمواج الرفض.

- قصة جيمس باري العجيبة - إيزوبيل راي.
- طبيبات لا يقهرن - كارلوتا هاكير.

جورج صَاند



«كم هي طيبة الحياة، حين نكتشف أن السعادة في العطاء لا في الأخذ».

جورج صاند.

هذا العالم من النساء! يحار متابع سيرة حياتها، وقارئ اعمالها، أين يضعها، وكيف يصنفها؟

هي كاتبة، شاعرة، روائية زاخرة العطاء ومسرحية شغوفة بسكب الحياة فوق الخشبة، ودعوة الناس الى المشاركة في الاحتفال.

إبنة الحياة، هي، لم تبتعد عن جذورها لحظة. وهي الصديقة المحبة، تهب من نفسها بلا منّة أو حساب، والزوجة الخائبة بسبب زواج غير متكافئ.

ثم انها الحبيبة، يحيط بها المعجبون من نخبة مفكري عصرها وفنّانيه، فتلهمهم وتترك في اعمالهم أعمق الآثار، كما تستوحي من عطائهم ما يضفي على أدبها اللون والطرافة.

وهي الأم التي عاشت عطاء الأمومة وصراع الأجيال، بكثير من الحكمة والهدوء... ثم الجدة المختمرة بالسنين والتجارب، تردها طفولة الأحفاد إلى طفولتها، فتسعد لسعادتهم وتلعب بألعابهم وتترك للأجيال التالية درساً في فن العيش:

فالعمر عندها لا يجزأ، والحياة هي تلك المغامرة التي لا تعرف بدءًا ولا تضع حدودها عند أعتاب النهايات.

* * *

ولدت «**أورور دي بان**»، التي عرفت باسم **جورج صاند**، في أول تموز من العام ١٨٠٤ عند ملتقى عقلانية القرن الثامن عشر ورومنسية القرن التاسع عشر. والدها «**موريس دي بان**» متحدر من سلالة سويدية ألمانية، استوطنت **فرنسا**، ووالدتها «**صوفي دي لا بورد**» امرأة بسيطة، عملت في أحد المسارح الصغيرة في **باريس**، وهناك التقاها **موريس**، وكان زواج غير متكافئ، جعل جدتها **أورور**، السيدة الأرستوقراطية، وصاحبة قصر **نوهان** تغضب على ابنها، وترفض استقباله في بيتها. وقد استمر سخط الأم أربعة أعوام، ولدت خلالها **أورور** الصغيرة، وصارت في الثالثة من عمرها. وعندها خطر **لموريس** أن يرسلها مع أحد الخدم ويضعها فوق حضن الجدة. وكانت حيلة ناجحة، أوقعت الجدة في حب حفيدتها، فسامحت ابنها، ودعته ليحضر زوجته ويشاطرها العيش في القصر.

* * *

هذه المرحلة الأولى من حياة الكاتبة، عرفتها على أعنف صراع عائلي دار بين الجدة القوية المتعجرفة والأم المسكينة الطيبة. وقد اكتسب الصراع أبعاداً جديدة بوفاة الأب وكانت الطفلة في الرابعة من عمرها، فباتت فريسة شعور مزدوج: هي فخورة بجدتها، إذ خصتها باهتمامها، وكانت تناديها «**موريس الصغير**» وهي حزينة في حبها لأم منهزمة ضعيفة.

وبلغ الصراع أوجه حين رفضت الجدة أن تستقبل في قصرها شقيقة **أورور** من أمها واسمها **كارولين دي لابورد**، فقررت الأم أن تغادر القصر، تاركة ابنتها الثانية بين يدي جدة تستطيع أن توفر لها

حياة مرفهة وثقافة مميزة. وقد تأثرت الصغيرة من تضحية أمها، في سبيل تأمين مستقبل أفضل لها. لكنها لم تلبث أن غرقت في حياتها الخاصة، وشُغِلت بالدراسة على أيدي أساتذة كانوا يفدون إلى القصر ليشرفوا على تعليمها القراءة والكتابة والموسيقى واللغات، ومن بينها اللغة اللاتينية.

وكانت الطفلة تشعر بالشوق إلى رؤية أمها، فلا ترفض الجدة طلبها، بل تؤمن لها من ينقلها إلى **باريس** لتزور أمها، وتقضي معها بضعة أيام. وكانت الأم تعدها باحتضانها نهائياً متى تحسنت أحوالها المالية. لكن هذا الوعد لم يتم. وهكذا ظلت الطفلة تتردد بين عالمين، وهذا ولّد في نفسها بوادر التمرد.

لاحظت الجدة هذه النزعة الجديدة في حفيدتها، وشاءت أن تلجمها، فبعثتها لتتابع دروسها في دير «**السيدات البريطانيات**». حيث باتت أقرب إلى أمها، ومتحررة جزئياً من رقابة الجدة.

استفادت **أورور** من أجواء الهدوء، فأقبلت على التعلم بنهم. وتأثرت بالأجواء الدينية، فانتابتها موجة زهد.

ولم يرق ذلك للجدة، إذ كانت طامحة الى ان تزوجها برجل ثري ومعروف. وهكذا عادت الصبية إلى **قصر نوهان** عام ١٨٢٠ . لكن الزواج لم يكن سهلاً نظراً لسمعة أمها، والتقاليد الصارمة في مجتمعها.

وسجلت ذاكرة الصبية ذلك بدقة، وولد في نفسها ثورة على زيف المجتمع، وازداد ازدراؤها له بعدما علمت أن طالب الطب، الذي كلفته جدتها تعليمها ركوب الخيل، رضخ لإرادة أهله، ورفض خطبتها، برغم حبهما المتبادل.

كانت هذه أول صدمة عاطفية تتلقاها الصبية. ثم توفيت الجدة وتركتها في عهدة أستاذها **ديشارتر** كما عينت وصياً هو **الكونت دي فيلانوف**.

* * *

أورور في السابعة عشرة من عمرها. وأمها هي أقرب الأشخاص إليها، فكان من الطبيعي أن تقصد القصر لاسترجاعها.

وفتحت معركة مع الوصي وربحت، فحملت ابنتها، وعادت بها إلى **باريس**. لكن الصبية لم تلبث أن اكتشفت الفرق الشاسع بين حياتها في القصر الريفي، وعيشة البؤس مع الوالدة. ودارت بين الأم والابنة مشاحنات عديدة تركت تأثيراً سيئاً على صحة **أورور** وجعلتها تبحث عن وسيلة للابتعاد عن أمها، فوجدتها في شخص شاب تعرفت إليه، ويدعى **كازيمير دودفان**.

من هنا، تبدأ رحلة جديدة. **كازيمير** شاب وسيم، أعجبت به، ولم تكترث للفارق الكبير بين طبيعتها العاطفية الرومنطقية، وطبعه المادي الواقعي. وقد تم **زواجهما** في العاشر من أيلول عام ١٨٢٢ .

أشهر الزواج الأولى تخلق تقارباً بين العروسين، وتبدأ **أورور** تكتشف أن ما يشغل **كازيمير** لا يهمها، كما لا يكترث هو، من ناحيته، لأي من الأمور التي تشغلها، كالموسيقى، والفن والمطالعة.

قضت الأعوام الأولى، من حياتها الزوجية في **قصر نوهان** بعدما أصبحت وريثته.

وظلت تقنع نفسها بأنها راضية عن الوضع. وهي ترى من طرف

عينها، كيف يتصرف **كازيمير** بأموالها. إلا أن القانون الفرنسي في حينه، كان يعطي الزوج الحق في ذلك.

واستقبلت العائلة مولودها الأول **موريس** لكن الهوة بين الزوجين ظلت تزداد عمقاً، خصوصاً وأن الزوج بات ينفق أمواله على أمور تافهة، ويعامل الزوجة معاملة خشنة لا مبالية، وغير لائقة بامرأة ذكية، مرهفة الحس والذوق.

وكان عدم اكتراثه، يبلغ به حد التحقير، مما دفعها في أحد الأيام إلى أن تحمل الطفل وتلجأ به إلى الدير. لكنها اكتشفت أن الهرب لن يحل المشكلة، فعادت إلى القصر في محاولة جديدة لإصلاح الأمور.

وقد استمرت حياتها الزوجية هذه ثلاث عشرة سنة، كانت عذاباً متواصلاً. لكن ذلك لم يمنعها من إنجاب ابنة سمتها **صولانج**. وكبرت مسؤوليات الأمومة، من دون أن تتحسن أوضاع الزوجين، مما دفع **أورور** في نهاية الأمر، الى ان ترفع دعوى ضد زوجها، تطلب فيها الانفصال عنه، وربحت.

* * *

لم تكن **أورور** المرأة المسكينة، الخاضعة كلياً لإرادة الزوج، وقد تفلتت من سيطرته، وقامت بعدة مغامرات سجل الزوج تواريخها وتفاصيلها في يومياته، مع أنه لم يظهر حيالها أي اعتراض، بل أنه كان يقف منها موقف المشجع والمؤيد لتلك المغامرات. وقد كتب عن رحلتها الأولى برفقة «**أورليان دوسيز**» إلى **جبال البرينيه** ومدينة **بوردو**. وكان في بعض الأحيان، ينقل الرسائل بين الصديقين. كما أن الزوجة لم تنقطع عن مراسلته، واخباره عن أحداث الرحلة.

ومغامراتها التالية كانت مع «**ستيفان فرونسان**»، ثم الرحلة مع **جول صاندو**، وكانت **أورور** قد بدأت تمارس الكتابة، واستعارت جزءاً من اسم صديقها إضافة إلى اسمها الجديد المستعار: «**جورج صاند**».

وكانت لا تزال مرتبطة بالزواج، عندما قامت برحلتها الشهيرة مع الشاعر «**ألفرد دي موسيه**» إلى **إيطاليا**. وكانت خيبتها به كبيرة، إذ اكتشفت أن الشاعر ليس الإنسان المثالي الذي تخيلته، بل هو أناني، محب للسيطرة. وكتبت عنه في يومياتها:

«**كنت أظن أَنَّ في وسعي أن أنقذه من نفسه، وفشلت**».

لكنها كانت تكتب النجاح بطريقتها، فتغرق نفسها ساعات في الكتابة، وبدأت تكتب الروايات، وتراسل بعض الصحف والمجلات.

ونشرت مذكراتها الأولى قبل أن تتجاوز الثالثة والعشرين من عمرها. لكنها لم تلق الحماسة التي تاقت إليها، خصوصاً وأن ردود فعل النقاد كانت باردة وغير مكترثة. وقد تولى «**هنري دولاتوش**»، في هذه المرحلة، تدريب **جورج** على كتابة المقال، واستفادت من توجيهه، وبدأت تنشر مقالاتها في «**الفيغارو**» وتثير ضجة حول اسمها وأفكارها.

وتسببت مرة في ايقاف الصحيفة عن الصدور. وكان هذا مصدر فرح لها، إذ توقعت أن تعتقل، فتثير اهتمام الرأي العام لكن الأمور لم تبلغ هذا الحد. إنما تأكد لها، ان هدف حياتها هو الكتابة، ولم يعد يثنيها شيء عن بلوغ الهدف.

* * *

إبتداء من العام ١٨٣١ ركزت **جورج** حياتها في **باريس**، وكانت تقوم بزيارة ولديها وتراسل زوجها كصديق، كما بدأت تستقبل في صالونها كتّاب العصر وفنانيه. وقد ألهمت عدداً كبيراً منهم: **غوستاف فلوبير** وكان يدعوها «**أستاذي العزيز**»، **وهونوري دو بلزاك** استشارها لعنوان أعظم كتبه «**بياتريس**»، وقال عنها **دوستويفسكي**: «**انها فريدة بحيويتها وروحها وذكائها**». وأحبت كلاً من **ألفرد دي موسيه وفريديريك شوبان** وتركت أعمق الأثر في اعمالهما، كما أوحت **لفرانز ليست** بإحدى أجمل مقطوعاته الموسيقية.

كان خروجها عن تقاليد مجتمعها، كافياً ليثير الغضب، فتصدت لمناوئيها بشجاعة وثقة، ومضت في سبيل الابداع وعبرت بصراحة عن قضايا لا تزال تعتبر، حتى اليوم، مهمة وأساسية في حياة الإنسان.

وصار النجاح يجلب لها الشهرة، وبات مردود كتبها كافياً لإعالتها، كما أنها شعرت بالرضى والقناعة، إذ عبرت عن النساء الصامتات في عصرها، ونقلت إلى الأذهان، صوراً حية وواقعية من حياتهن. وكانت في الواقع، تستوحي حياتها، وتجاربها، والمصاعب التي اعترضتها.

روايتها الأولى «**انديانا**» وسعت دائرة شهرتها، لكنها ظلت تعمل في الصحافة حتى تاريخ نشرها «**فالنتين**» روايتها الثانية، وعندها انصرفت نهائياً إلى كتابة الرواية. وتقول في وصف شعورها في تلك الفترة: «**إن أسعد أوقات عمري هي ساعات العمل، في البيت، وقرب الموقد**».

* * *

«**ليليا أو حياة جورج صاند**» عنوان الكتاب الذي وضعه **أندريه موروا** عام ١٩٥٢ عن حياة الكاتبة التي تعرضت لسخرية الكتّاب وكراهية مؤلفي السيرة. وقد شاء أن ينصفها، ويظهر حقيقة «**تلك المرأة العظيمة التي كانت رجلاً عظيماً**».

إذاً اعتبر «**ليليا**» أهم أعمالها الروائية، وهي التي أرست شهرتها، وكانت، حين نشرتها، في التاسعة والعشرين من عمرها. وقد أعجب بها النقاد، خصوصاً أشهرهم ويدعى **سانت بوف**، فكتب يطري صدق تعبيرها وعفويتها.

* * *

صادف بروز **جورج صاند** مع ذروة الموجة الرومنطقية، وقد حملت لواءها، وعاشت في أجوائها، مستفيدة من غنى الجو الأدبي والفني في **باريس**، واختارت زيّ الرجال وظهرت فيه بكل ثقة وشجاعة، لأنها اعتبرته مفيداً لسببين: **إنه يوفر على الجيب، ثم يسمح بسهولة التنقل في مجالس المفكرين، وبعض الأماكن المغلقة في وجوه النساء.**

ومثلما تحدت المحرمات فإنها لم تكف لحظة واحدة عن تحدي التقاليد. وأجرأ خطاها في ذلك السبيل كان لقاؤها مع الموسيقى **شوبان**. فقد حصل أن تقابلا عام ١٨٣٦ أي على اثر انفصالها عن زوجها، ولم يُبدِ **شوبان** أي اهتمام بها، إذ كان منشغلاً عنها بخطبته فتاة جميلة، اضطرها أهلها إلى فصل الخطبة بسبب اعتلال صحة الخطيب. ولكن الوضع بدا مختلفاً حين عادا والتقيا في السنة التالية. ولم تعد **جورج** تبدو «**سمجة وغير جذابة**» كما لاحظ في يومياته

قبل عام. وقد دعته الى ان يقيم في **قصر نوهان** ريثما يسترد صحته في أجواء الريف الرائعة.

اكتسبت الموسيقي وسكان القصر جميعاً، وكانت **جورج** تشرف على تمريض شخصين: **شوبان** وابنها **موريس** الذي أصيب بداء العصبي.

وبناء على نصيحة الطبيب، سافر الجميع إلى جزيرة **مايوركا في اسبانيا**، لينعموا بالدفء. طالت الرحلة أكثر من ثلاثة أشهر وصفتها **جورج** بقولها: إنها كانت من أتعس أيام حياتها. فعلاوة على المرض، كان عليها أن تتحمل عداء سكان الجزيرة الذين لم يتقبلوا بوهيمية تلك المجموعة الغريبة. وبعدها عادت إلى **فرنسا**، وبقي **شوبان** مقيماً معها، كواحد من أفراد العائلة، بل صار يتدخل في كل الشؤون العائلية.

وتحملت منه ذلك مراعاة لصحته المعتلة. وقد أعطى الفنان أفضل موسيقاه من وحي هذه التجربة، كما كتبت **جورج** «**أيام في مايوركا**».

وظلت دارها الباريسية مشرعة الأبواب للفنانين والأدباء. لكنها كانت تقضي أشهر الصيف في **نوهان**. وقد تبنت فتاة اسمها **أوغستين** فأثار عملها هذا غيرة ابنتها **صولانج** وبدأت معها سلسلة من المشاحنات امتدت حتى أواخر أيامها.

والذي زاد الطين بلة، أن زوج **صولانج**، لم يكن محباً، فأخذ يحرضها ضد أمها، وانضم إليهما **شوبان**، إذ وقف في صف الابنة، متناسياً ما قدمته الأم من أجل راحته. وأثار والد **أوغستين** الغبار من

حول الكاتبة، بنشره كتاباً حاول فيه أن ينال من سمعتها، لكن هدفه الأول كان ابتزاز المال.

وأغضبت بعض المقالات السياسية التي نشرتها **جورج** سكان منطقتها، فسببوا لها مضايقات، مما اضطرها الى أن تلجأ إلى **باريس**.

* * *

كانت **فرنسا** في العام ١٨٤٨، أي زمن الغليان السياسي. وشعرت الكاتبة بأن عليها أن تجمّد قلمها السياسي، إذ تعذر إبداء الرأي الحر. فاعتزلت الصحافة، وانصرفت إلى كتابة المذكرات علاوة على الروايات.

وبدأت تكتب قصة حياتها التي نشرتها في عشرة أجزاء، وتعتبر من أهم أعمالها، إذ ضمنتها خبرتها العميقة والواسعة في الناس والحياة.

* * *

أما العام ١٨٤٩ فقد كان عام الكارثة بالنسبة الى الكاتبة، إذ توفي أخوها من أمها، وصديقها **شوبان**، وصديقتها الممثلة الشهيرة **ماري دورفال** وحزنت على الجميع.

إنما حزنها على **شوبان** كان صامتاً، إذ سبب لها، قبل رحيله، الكثير من الآلام.

في المرحلة التالية، انصرفت **جورج** إلى التأليف المسرحي، ولم يكن ذلك غريباً عنها، فقد عاشت في قلب الحركة المسرحية، ولاقت مسرحياتها نجاحاً يذكر، خصوصاً بعد العام ١٨٦٤ .

لكن حياتها العائلية، سببت لها الكثير من المضايقات، وبقيت غاضبة على ابنتها، ولم ترحب بها في دارها، فلجأت هذه إلى حيلة اعتمدتها جدتها من قبل، فقصدت أمها برفقة طفلتها ابنة السنتين، **نيني**، ووضعتها في حضن الجدة.

وحن قلب **جورج**، فرضيت عن الابنة، إنما رفضت أن تستقبل صهرها. ولما دعت **صولانج** أخاها **موريس** الى ان يزورها في **باريس**، أوصته أمه، في رسالة مطولة، بألاّ يتذوق أي طعام أو شراب من يد أخته وصهره خشية أن يدسا له السم، طمعاً بالميراث.

ولم تكن حياة **صولانج** مع زوجها سعيدة، فقد دب الخلاف بينهما، وبعثت إليها أمها برسالة تنضح غضباً، وتضع النقاط على الحروف. لكنها لم تحمّل الطفلة خطيئة أبويها، وطلبت حضانتها، فرفض الأب، وبقيت الصغيرة موضع نزاع عائلي إلى أن توفيت نتيجة إهمال والدها.

ولجأت **صولانج** إلى حضن أمها حزينة محطمة الفؤاد، لكنها لم تلبث أن عادت إلى حياة الطيش واللهو، وبقيت أعمق وجع في حياة الكاتبة.

أما علاقة **جورج** بابنها **موريس** فقد بدأت تسوء بسبب احتكاك بسيط، فما كان منها، إلا أن غادرت **نوهان** تاركة القصر لابنها وكنتها، وابتاعت بيتاً في **باليزو** أقامت فيه مع مرافقها الخاص **مانصو** الذي بقي أوفى شخص في حياتها.

في عزلتها الجديدة، حاولت الكاتبة أن تجمع حياتها المبعثرة، وكانت تهتم **بمانصو**، وتعنى بصحته المعتلة، وشجعته على الكتابة بغية

إعادة الأمل إلى نفسه. ولكن بُعدها عن **موريس** لم ينتزع آلامه من حياتها، إذ لم تلبث أن فجعت بوفاة حفيدها الطفل، فكان هذا جرحاً جديداً يضاف إلى جراحها السابقة.

وهرعت إلى **نوهان** لتؤاسي **موريس** وزوجته، وأوصتهما قبل أن تغادر، بأن ينجبا العديد من الأولاد للتعويض من المفقود الغالي.

ثم عادت إلى **باليزو** لتتابع تمريض **مانصو** إذ لم يكن له في الدنيا سواها. وكأنما القدر كان يختار الأشخاص ويضعهم في سبيلها، لتسعد بصداقتهم فترة قصيرة، تدفع ثمنها فيما بعد، قلقاً وسهراً... أو ربما اختارتها العناية الإلهية لتكون شاهدة على آلام سجلتها في رواياتها ورسائلها.

وقد فشل كل جهد بذلته لإنقاذ **مانصو** وتوفي مخلفاً كل ما يملكه لابنها **موريس** اعترافاً منه بفضل الأسرة التي رعته، كما ترك مذكرات هامة، يتحدث فيها عن «**السيدة**» وحياتها.

* * *

أما **موريس**، وقد أنضجته الحياة والتجارب، فبات مقدراً وضع أمه ومكانتها، وتقدم منها بعطف صادق، وأعادها إلى قصر **نوهان** الذي عرفت فيه طفولتها، وتفتح الصبا وأيام الشباب والعز.

وبات القصر محجة الأدباء، وملتقى المفكرين، والفنانين. وأنشأت فيه مع إبنها وكنتها مسرحاً للدمى، اهتمت به شخصياً من كتابة القصص، حتى إعداد الثياب. وكانت تدعو ضيوفها لمشاهدة المسرحيات، وهم من كبار الشخصيات أمثال **فلوبير وتورغينيف**، وسواهما.

وكان **موريس** وزوجته **لينا** يساعدانها في إعداد المسرحيات ويشتركان في تمثيلها. وظلت تجد وقتاً كافياً لتداعب أحفادها، تؤلف لهم القصص، وتلعب وتقفز معهم في حديقة القصر، وكأنها طفلة صغيرة.

* * *

استمرت **جورج** حتى آخر لحظة من حياتها، المبدعة الفنانة، التي تملك أصابع جنية، لا تطرق باباً إلا ويفتح لها.

وبرغم عطائها السخي في الأدب، (إذ بلغ عدد مؤلفاتها التي نشرت في أواخر القرن التاسع عشر مائة وتسعة أجزاء، بينها ستون رواية، وعشرون مسرحية، إلى جانب مقالات ورسائل ومذكرات) فإنها أعطت في مجال الفن، كما وهبت بسخاء الأمومة التي تؤمن بأن الطفل يتقدم على يدي أمه أضعاف تقدمه بين أيدي الغرباء. وكان يمكنها أن تعطي المزيد لو لم يداهمها مرض أصاب الكبد والجهاز الهضمي وكان سبب وفاتها في الثامن من حزيران، عام ١٨٧٦.

وكتب **فلوبير** إلى **تورغينيف** يعبّر عن حزنه لفقدها: «**كان يجب أن تعرفها، مثلما عرفتها أنا، لتقدر الأنوثة التي انطوى عليها صدر هذا «الرجل» الكبير، الى الحنان الدافق، والعبقرية**».

أما **جوليبت لامبير** فقد كتبت فيما بعد: «**إذا فقدت حقها في أن نحكم عليها كامرأة، فلنحكم عليها كرجل... من سوء حظها أنها عاشت في عصر كان فيه الحكم على المرأة والرجل غير متعادل**».

أما **جورج**، فقد ردت يوماً على سؤال إحدى الكاتبات، إذا كانت

راضية عن نفسها فقالت: «**لو قدر لي أن أبدأ حياتي من جديد، لما ترددت في اختيار طريق العفة**».

وقال لها فلوبير:

* **آه! يا سيدي العزيز! لو كان في وسعك أن تكره! هذا ما ينقصك، المقدرة على الكراهية.**
* **إمرأة تتألم من أجل الجميع...**
* **برغم كون عينيك كعيني «أبو الهول» فقد رأيت من خلالهما الذهب... ذهب الشمس المشرقة في قلبك.**

* * *

ومن أندريه موروا:

* **كانت الصوت النسائي الوحيد في القرن الماضي.**
* **تلك المرأة العظيمة، كانت رجلاً عظيماً.**

* * *

ومن أقوالها:

* **كم هي طيبة الحياة حين نكتشف أن السعادة هي في العطاء لا في الأخذ.**
* **كلما تقدمت في السن إزداد ولعي بالعمل.**
* **لم أشعر بقيمة الحياة إلا حين بدأت أعمل كي أعيش.**

* إن ألم الجسد يحرر الروح.
* يجب أن أبلغ أعماق اليأس كي أستعيد شجاعتي.
* ليس من طبعي أن أغلّب العقل على العاطفة حين يطرق الحب باب القلب.
* هناك ألف قضية أهم من الذكاء، منها: الأمومة، الحب والصداقة.

- ليليا أو حياة جورج صاند - اندريه موروا.
- جورج صاند - فرانسين ماليه.
- جورج صاند، حب ونبوغ - سلمى الحفار الكزبري.

ماري تاغليوني



«وكان الجمهور ينتقل على رفيف جناحيها الى مدى لا يبلغه الخيال».

تكاد حكايتها ان تكون اسطورية. ذلك ان صاحبة السيرة ليست رائدة في زمانها، وحسب، بل انها شهادة على الارادة الانسانية، التي تُطوّع الحجر، وتُنطق الجماد، وتُحوّل فتاة ليس لديها من الجمال او الرشاقة ما يلفت اليها الانظار... تحوّلها من فتاة عادية، بل دون المستوى شكلا وجمال وجه، الى نجمة تتألق في سماء الفن، وفي عصر كان فيه الحساب عسيرا، والاعتماد يتركز على القدرة البشرية وحدها، من دون الاستعانة بصناعة التجميل، وإخفاء العيوب...

* * *

وحين جاءوا بها الى استاذ الرقص الفرنسي الشهير **كولون**، تأمّلها طويلا بنظرات مشفقة، حزينة وصرخ: «**ماذا تراني أفعل بها؟**»...

و «هي» فتاة نحيلة، عادية الجمال مُحدودبة الظهر، تمتد ذراعاها الناحلتان اطول من قامتها.

كانت تلك **ماري تاغليوني** الطفلة. ولم يحسب الاستاذ أن هذه العجينة الغريبة، مخيّبة توقّعاته، سوف تدوّن اسمها في تاريخ الرقص، وتتركه، محفوظا في ذاكرة من سيأتي بعدها، من عشاق ومحترفي هذا الفن الجميل: رقص «الباليه» او الرقص الايقاعي.

* * *

اسمها، كان في القرن الماضي مُلهم الشعراء، والفنانين، والمحطة

التي يلتقي عندها النقاد ليسكبوا الاعجاب، ويبحثوا عن كلمات جديدة، تعبّر عن الشعور الذي نقلته اليهم ساحرة زمانها. اما الجمهور، فكانت له معها حكاية أخرى، إذ ما تكاد تطل على المسرح، حتى يكاد يُصاب بالاغماء...

ذلك ان **تاغليوني** كانت اكثر من فنانة موهوبة: فهي أول راقصة في تاريخ هذا الفن التعبيري البديع، تخرج على التقاليد، وتفرض اسلوبا خاصا بها، لم يلبث ان انتشر، حتى عمّ اوروبا بأسرها، وظلّت بصماته واضحة في خطى الراقصين حتى يومنا الحاضر.

* * *

قبل ان تُطل **تاغليوني** على المسرح، عام ١٨٢٢ لتدشّن فنّها المميَّز، كان الراقصون يكتفون بالأشكال التقليدية المستوحاة من أساطير الرومان واليونان القدامى. وجاءت هي، لتنقل جمهورها، بعيدا عن زمانه ومكانه الارضي، وترفعه الى مرتبة اثيرية، فيعيش معها في النور والجمال والرشاقة، فهي البادئة في فنّ الرقص على رؤوس القدمين. واعتُبر نجاحُها، في حينه، لونا من السحر الخارق.

* * *

يؤكّد بعض الذين كتبوا تاريخ هذا الفن، ان الرقص على رؤوس القدمين بدأ مع **تاغليوني**، بينما يعترض بعضهم معتبرين ان البدء كان مع **فاني بياس** من اوبرا باريس **وآماليا برونيولي** الايطالية الاصل. لكن هاتين الراقصتين اكتفتا باستعراض مختصر، ولم تتوصّلا الى الاتقان الذي بلغته، من بعد، **تاغليوني**؛ اذ كانت تبدو، خلال الرقص، وكأنها تطير، فلا تلامس قدماها ارض المسرح.

فكيف بلغت، الفتاة العادية - والتي اعتبرها استاذها الاول كارثة فنية - كيف بلغت تلك المرتبة؟... وكيف اصبحت الطفلة المحدودبة الظهر، والنحيلة الساعدين، نجمة عصرها المميّزة؟..

* * *

طبعا، ذلك لم يحدث بين ليلة وضحى... وفن الباليه ليس سهلا، ولا ينتهي عند حدود الثياب الرائعة، والزخارف الجذّابة، والاطر المسرحية الجميلة، حيث تصدح الموسيقى، وتحلّق اعذب الالحان.

الرقص يتطلب جهدا كبيرا، ونظاما جسديا وفكريا متشددا. وعلى راقصة الباليه ان تخضع لبرنامج عمل مكثف يمتد على مساحة عمرها؛ اذ عليها ان تتدرب كل يوم من ايام عملها. اما البدء فيعني العيش القاسي، والقدرة على الاحتمال، والمثابرة والصبر الطويل. ومن لا تتمتع بهذه الصفات لا تثبت طويلا في الحلبة. انه صراع دائم مع الخارج ومع الداخل. ومحاولة اثر محاولة لتطويع العضلات، واعضاء الجسم، كي تخضع كليا لمدار النغم.

* * *

هناك عدة اسس لم تتغير، برغم انقضاء ثلاثة قرون على ولادة هذا الفن، اهمها: التمرين القاسي، والذي يكاد يكسر الظهر، ويغرس الالم في كل المفاصل والعضلات، قبل ان يتوصل الى تطويعها. إذًا، فالامر ابعد من ارتداء ثياب مدهشة، او الطيران على اجنحة الموسيقى والخيال، و... تصفيق الجمهور.

من نذرت نفسها لهذا الفن الراقي، تجد لزاما عليها ان تمر فوق جسر العذاب، والالم والصبر وقوة العزيمة، قبل ان تبلغ مرتبة الاتقان.

وقبل ان يُسمح لها بالظهور فوق المسرح، حيث الانوار المشعة والجمهور المنتظر بلهفة. ولم يسبق لفنانة، ان عرفت العذاب والالم اللذين عانتهما **تاغليوني**؛ ذلك ان والدها اخضعها لاقسى التمارين، كما وضع لها أسمى الاهداف...

* * *

ولدت **ماري** في **السويد**، بتاريخ ٢٣ نيسان، عام ١٨٠٤ . والدها **فيليب تاغليوني**، وكان راقصا ايطاليا، واستاذا في فن الرقص الايقاعي في مدينة **ميلانو**. اشتهر فوق مسارح **اوروبا**، قبل ان ينضم الى الاوبرا الملكية في **ستوكهولم**. انما ذلك لم يكن سببا مقنعا لكي تتوجّه ابنته **ماري**، ذات الكتفين المنخفضتين، والظهر الأحدب، الى اقتفاء خطاه. لكن الاب ارادها ان تكون راقصة. ومن كان يجرؤ (بل من كانت تجرؤ) على معارضة ارادة رب العائلة؟ خصوصا في تلك الحقبة الزمنية، حين كانت غالبية النساء تتبع الخط التقليدي المرسوم منذ مئات السنين...

أراد الوالد ان يجعل ابنته راقصة باليه، مهما كان الثمن. وما كادت تبلغ العاشرة من عمرها، حتى وضعها تحت اشراف احد اساتذته القدامى في **باريس**، وكان اسمه **كولون**.

وهكذا انتقلت **ماري** لتعيش مع امها واخيها **بول** في العاصمة الفرنسية، بينما تابع الاب جولاته الفنية بين المدن الاوروبية، ولم تكن الفتاة غبية الى حد لا تلاحظ معه مواطن النقص في جسدها. كما انها لم تكن ميّالة الى فن ابيها، فصارت تهرب من الدرس، وترافق احدى الصديقات، لتقوما معا بجولات في شوارع **باريس**، واحيانا،

كانت تسوقهما الشقاوة الى انتحال صفة غرباء يبحثون عن منازل للايجار بتفويض من العائلة، حتى اذا غربت الشمس، وحل وقت الرجوع الى البيت، عادتا، مبلّلتيْ الشعر والثياب، لاقناع الاهل بالجهد المبذول في الرقص.

لكن الهرب لم يكن ممارسة يومية كما لم يفتْ الاستاذ أن يلحظه، فسارع الى كتابة تقرير ينبئ فيه الوالد بأنه، عبثا لن تتقدم، ولن تصبح النجمة التي يحلم بها...

لكن حساب الاب كان مختلفا. ولم يخفف التقرير من حماسته، بل زاده اصرارا على المضي في الجهد الى النهاية، اذ كان ينتظر بلهفة، ساعة يقدّمها الى جمهوره، النجمة الاولى في الفرقة الراقصة. وفي الواقع سجل اسمها وصفتها هذه، على مسرح البلاط الملكي في **فيينا**، حيث كان هو الراقص الاول.

* * *

كانت **ماري** في السابعة عشرة من عمرها، حين كتب الاب الى زوجته يطلب منها ان تُحضر الولدين على جناح السرعة وتوافيه الى العاصمة النمساوية. فقد كان رأسه يضجّ بالأحلام، وفي القمة تقف الابنة، حلمه الاول.

وحين وضعها على محك التجربة، انهارت آماله، وخابت ظنونه، وابصر قصور احلامه حجارة منثورة. لقد اكتشف أن ابنته لم تكن صالحة للقيام بالدور الاول، ولا حتى بالثاني. لكن ذلك لم يثنه عن عزمه، ولم يتراجع خطوة عن تصميمه الاول، فهو يريدها ان تصبح راقصة زمانها، والنجمة الاولى فوق مسارح **اوروبا**. وتصميم كهذا

يحتاج الى تخطيط؛ وكانت الخطة جاهزة في رأسه، فمضى في تحقيقها: وقّع عقدا لحساب **ماري**، شرط ان تبدأ تنفيذه بعد ستة اشهر من تاريخ التوقيع.

* * *

كان على **ماري** ان تواجه اقسى تجربة يمكن ان يمر فيها اي فنان. ان والدها هو استاذها. وكان يوقظها في ساعة مبكرة من الصباح، لتبدأ تدريبها مدة ساعتين. ثم تتناول وجبة خفيفة وتخلد الى الراحة لفترة قصيرة، قبل ان تعود فتزاول الرقص على رؤوس القدمين مدة ساعتين، ثم تتناول وجبة اخرى، وقسطا يسيرا من الراحة، ثم تعود الى التدرّب على القفز في الهواء، والدوران على نفسها، وتطويع الجسم والروح. والاب لا يفارقها؛ فهو تارة يشجّعها، ويحثّها على الاستمرار، وطورا ينتقدها ويُصدر الأوامر بصرامة، الى ان يشعر بأن الفتاة أُرهقت تماما، ولم تعد قادرة حتى على نزع ثيابها، وارتداء ثياب النوم؛ وعند ذلك، فقط، يسلمها لأمها، كي تهتم بغسلها والعناية بها، قبل النوم.

* * *

هكذا عاشت **ماري** الأشهر التالية، والاب لا يتراجع عن قراره خطوة، ولا يُبدي رحمة او شفقة. والغريب ان **ماري** بدأت، ولاول مرّة في حياتها، تتذوّق الرقص، بل تتمتّع به، برغم البرنامج الظالم، القاسي. وكانت تلك نقطة التحوّل في حياتها؛ فقد تحسّن اسلوبها، وصارت تجيد كل الخطوات، واصبحت اكثر اشتياقا من ابيها الى الظهور على المسرح واتقان هذا الفن حتى آخر الحدود.

وقد كرّست نفسها لفنّها، ورفعته الى مرتبة عالية، لم يسبق ان بلغها قبلها، خصوصا إدخالها رقصة جديدة، تبدو فيها اشبه بطائر يرفّ في الاجواء ولا يلامس الارض. وابتكر لها الوالد رقصة اخرى، تُظهر براعتها المميّزة، اذ تؤدي فيها دور جنية قادمة من عالم السحر والغرابة. وحين قدمت هذه الرقصة على المسرح الملكي في **فيينا**، كانت قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها، ودخلت بكل الثقة والمهارة، واطلّت على جمهور موعود بها، ومتشوّق ليرى فنّها، ولم يكن صعبا ان تستميله، وتثير حماسته واعجابه، وتسجّل بذلك، خطوتها الاولى على سلّم النجاح والصعود. حدث ذلك في احدى امسيات حزيران من العام ١٨٢٢ .

* * *

كانت السنوات العشر التالية المرحلة الذهبية في حياة **تاغليوني** الفنية؛ فأصبحت معبودة الأوروبيين في كل مكان، وراحت تتنقّل بين العواصم والمدن الكبرى، العام ١٨٣٢ ابتكرت دورا جديدا في الرقص، لا يزال يحمل اسمها، وسجّلت ولادة «**الباليه الأبيض**» اي الاستعراض الذي تظهر فيه الراقصات في ملابس مصنوعة من قماش «**التيلا**» الشفاف، الابيض، الفضفاض، والذي يرف حولهن كأجنحة الملائكة، ويساهم، مع رشاقة الخطوة، في اظهار خفة الفنانات ورشاقتهن. وكانت **لماري** ميزات ترافقها في كل اداء، وينتظرها الجمهور بشوق؛ فهي واثقة بنفسها، تقفز برشاقة، بل تطير، وتتحكم بكل عضلات جسمها. ولكي نُقدّر مهارتها، يجب ان نذكر أن احذية الرقص، في تلك الحقبة، لم تكن متطورة الصنع، كما هي في

يومنا الحالي، وكان على الراقصة ان تعوّض، بمهارتها، من تقصير الصنعة...

* * *

رقصة «**الجنيّة**» كانت الذروة التي بلغتها **تاغليوني**. وهي تروي قصة حب لطيفة، لكنها مأسوية. ويمكننا ان نتصوّر التأثير الذي تركته الراقصة، في نفوس المتفرّجين، وهي تؤدي ذلك الدور الدرامي، في رقصة من ابتكارها. فقد باتت الحلم، ومصدر الوحي للشعراء والفنانين. فكتبت فيها القصائد، ورُسمت خطواتها في لوحات اشهر الرسامين. أما الجمهور، فكان ينتقل، على رفيف جناحيها، الى مدى لا يبلغه الخيال. وبات اسمها **تاغليوني** مرادفا في معناه للروح اللطيفة المرهفة.

ومع ان هذا الدور كان ذروة اعمالها فقد عادت تبدع في رقصة اخرى اسمها «**خطوة الأربع**»، وقد ظهرت معها، وان على مستوى أدنى، اشهر ثلاث راقصات في زمانها. وبالطبع لم يكن سهلا على مدير المسرح ان يجمْع اربع نجمات في حفلة واحدة، وسبق ظهور الثلاث مع **تاغليوني**، جدل تطور في حالات كثيرة الى القتال. لكن الفكرة مغرية، وتحقيقها ضروري، مهما كان الثمن. وهكذا راح المدير يبتكر شتى الحيل والأساليب لكي يُغري الراقصات بالقبول، وتحقيق الفكرة... الحلم.

وبالطبع لم تكن هناك مشكلة مع **تاغليوني** التي كانت اكبرهن سنا، والنجمة الأولى بلا منازع، اذ لم يكن يجرؤ على الوقوف، في مساواتها، أحد...

وفي النهاية، ارتفع الستار، وقُدِّمت الرقصة الفريدة، مع النجمات

الأصيلات، أربع ليال فقط، ثم استمرت، وإنما مع راقصات أقل شأنا. وقد سجلت حدثا فريدا في تاريخ هذا الفن. كان ذلك في الثاني عشر من شهر تموز، عام ١٨٤٥ .

* * *

تابعت **تاغليوني** تنقلّها بين المدن الكبرى. ويُروى أنها كانت تقوم بزيارة **روسيا**، برفقة والدها. وكان عليها ان تتدرب في اكاديمية المسرح الملكي، يوميا، قبل تقديم الحفلات. وفي يوم، تجمّع حولها طلاب الفن وراحوا يصرخون في وجهها، بلغتهم طبعا: «**آه! كم انت قبيحة! يا إلهي، ما أكثر التجاعيد في وجهك!**» ولم تكن الفنانة البالغة منتصف العمر، تفهم اللغة **الروسية**، وحسبت كلامهم تعبيرا على الاعجاب بها، فكانت ترد اليهم التحية بابتسامة، وتشكرهم بقولها: «**شكرا، يا ابنائي، شكرا**»...

اما التجاعيد التي اثارت سخرية المراهقين، فهي آثار حياة مجهدة، وصراع رافقها في كل لحظة من لحظات الصعود. وقد جمعت الفنانة بين دورها على المسرح ودورها الآخر في الحياة، فتزوجت، عام ١٨٣٢، **جيلبيرت دو فوازين** وهو احد الأشراف الفرنسيين، وانجبت منه ولدين، لكن الزواج لم يكن ناجحا، وانتهى بالطلاق بعد انقضاء بضع سنوات.

* * *

جمعت **تاغليوني** ثمار عملها، ثروة طائلة. وحين قررت ان تخلد للراحة، وتعتزل الرقص، عام ١٨٤٧، كانت ثروتها قد تبدّدت ولا احد يعرف كيف؛ وربما كان للزوج دوره في خسارتها. الا انها ظلّتْ

صامتة حيال هذا الموضوع، وقد اختارت الاقامة في قرية **بليفيو** قرب بحيرة **كومو** في **ايطاليا**. واضطرت، في مرحلة متأخرة من العمر، ان تعود الى تعليم الرقص الاجتماعي، الذي اشتهرت به صالات النبلاء في تلك الحقبة، وذلك لكي تحصل مالا يقيها العوز. وفي العام ١٨٨٠، وكانت قد بلغت السادسة والسبعين من عمرها، واصبحت عجوزا لطيفة، يُتوّج رأسها الشعر الابيض، انتقلت لتقيم مع ابنها في مدينة **مرسيليا**، حيث بقيت حتى وافاها الاجل في ٢٧ نيسان عام ١٨٨٤ .

* * *

وبقي اثرها في فن الرقص، تراثا افادت منه اشهر الراقصات اللواتي جئن بعدها. وان روحها تهيم مع الخطوات الرشيقة كلما ارتقت المسرح، نجمة ساحرة، لتقف، فوق رؤوس القدمين، وكلما رفّ ثوب اثيري، يشبه جناحي ملاك...

- الموسوعة البريطانية:
- باليه - كتاب سايمون وشوستر.
- مشاهير راقصات الباليه - تاليف جين ت. ماكونيل.

إليزابيت براوننغ



«كيف أحبكَ؟.. دعني أُعدّد الأساليب...»

«إن القصص الرائعة، لا تكون دائماً من نسج الخيال»...

عبارة من أحد الكتّاب الذين ترجموا حياة الشاعرة البريطانية **اليزابيث باريت براوننغ**.

واعتبر آخرون سيرة هذه الشاعرة، وحياتها، أهم من شعرها. ولكن، هل كان لتلك السيرة أي ذكر، لو لم تكن صاحبتها شاعرة، ومن طراز مميز؟

* * *

في مرحلة باكرة من تاريخ الأدب الانكليزي، شع اسمها وظهرت عبقرية لفتت إليها الأنظار. فقد جاءت **أليزابيث** في فترة تقع بين جيلين مختلفين من الشعراء. لذا ظلت صوتاً منفرداً، له طابعه، وجماله وبهاؤه.

ولدت في السادس من آذار ١٨٠٦ في مقاطعة **دور هام** في إنكلترة، وهي كبرى أولاد **أدوارد وماري باريت**. أي أنها كانت واحدة من ثلاث بنات وتسعة بنين.

وكان عمرها ثلاث سنوات، حين قررت العائلة الانتقال إلى مقاطعة ريفية، تحيط بها البحيرات والأحراج، أقامتْ فيها حتى بلغت الثالثة والعشرين من عمرها، وهنا بدأت تعبّ الجمال، وتفجّره شعراً ندياً...

* * *

وقبل أن نبدأ مرافقة مسيرتها الشعرية المبكرة جداً، لا بد من الإِشارة إلى المناخ العائلي الذي عاشت الشاعرة فيه، وتأثرت به، بل ورزحت تحته إلى حد الانسحاق والمرض.

كان أبوها متشدداً على أولاده. ورفض أن يرسلهم إلى المدرسة، فاستدعى أساتذة يدرسونهم في البيت، وكان النصيب الأكبر من الدرس للبنين، لكن **أليزابيث** المتشوقة الى العلم والمعرفة، الشغوفة باكتشاف الأسرار الخفية، رفضت هذه التفرقة، مما اضطر والدها إلى السماح لها بأن تدرس القراءة، والعلوم الطبيعية واللغات... وكان أستاذها **هيو بويد** وزميله العلامة **بوفيديل برايس** يشجعانها على دراسة اللغتين اللاتينية واليونانية.

وقد توصلت عن طريق اللغة، إلى التعرف على الأدب الاغريقي القديم، فأولعت به، وتأثرت بكتابه، ووجدت فيه التعويض من ضيق سببته لها العزلة القسرية التي فرضها عليها أبوها، فهو لم يكتف بمنعها مع أخوتها من ارتياد معاهد العلم وحسب، بل حرم عليهم أي اتصال بالعالم الخارجي. وكأن اولاده من طينة متفوقة، يخشى عليها، إن هي لامست سواها من المخلوقات. لكن، مع ذلك، لم يوفر الأب أي جهد في إعطاء ابنته طفولة سعيدة، وجوا مرحاً، كما أحاطها ببحبوحة من العاطفة، وكان يخصها برعايته إذ رأى فيها وعداً بالنجاح.

ويبدو أن الطفلة الحساسة، كانت تختزن تأثير ضغط الأب، في مكان ما من اللاوعي. فلما بلغت الخامسة عشرة من عمرها، أصيبت بداء لم يحدده الطب، وأعراضه ضعف في الأعصاب، أقعدها في السرير، مما عزَّز عزلتها، وجعلها تكثف المطالعة والانكباب على الدراسة.

في تلك الأثناء، كانت موهبة **اليزابيث** قد بدأت تلفت إليها انظار المحيطين بها... في الثامنة من عمرها، وقفت أمام والديها وألقت قصيدة من تأليفها. وفي العاشرة كتبت مسرحية شعرية وزعت أدوارها على الكبار من إخوتها، ومثلوها في إحدى السهرات العائلية. وكان أبوها شديد الاعجاب بكل تقدم تحققه، فلما بلغت الثالثة عشرة من عمرها، شجعها على المضي في كتابة الشعر، حين طبع خمسين نسخة من قصيدة ألفتها عن معركة **ماراثون**. وقد وزعت نسخاً منها على أفراد العائلة والمقربين منها.

* * *

إلى هنا، كانت الشاعرة الصغيرة تعيش حياة اجتماعية وعائلية سعيدة. لكن الأمور تبدلت على إثر مرضها، إنما ذلك لم يوقفها عن الكتابة، بل حصل العكس تماماً. ففي العام ١٨٢٦ نشرت مجموعة شعرية عنوانها «**مقالة على العقل وقصائد أخرى**» كما كانت تنشر باستمرار في الصحف والدوريات، وبأسماء مستعارة. لكن وفاة والدتها عام ١٨٢٨ زادتها حزناً وألماً، وأضافت الضائقة المالية إلى آلامها، حين اضطر والدها عام ١٨٣٢ إلى بيع القصر الريفي والانتقال مع العائلة إلى لندن.

في السنة التالية، نشرت **أليزابيث** قصائد مترجمة للشاعر الاغريقي **أخيل**. لكن أحداً لم يلتفت إلى أعمالها، وظل الاسم المستعار مغموراً.

* * *

وبقي النجاح الحقيقي الذي حققته إلى حين صدور ديوان «**السيرافيم وقصائد أخرى**» وقد نشرته موقعاً باسمها الحقيقي عام ١٨٣٨ . فتناولته الصحف والمجلات بالمديح، واهتمت المحافل الأدبية بظهور شاعرة جديدة، أدبها يلفت الانتباه، لما يحمله من إشراق ونُضج...

هنا وقفت الشاعرة، على عتبة مرحلة جديدة، فإن «**بطاركة**» الشعر، أمثال: **وورد سوورث**، كانوا يخرجون من العصر ويردون الباب خلفهم، فيما تلوح وعود شعراء طالعين أمثال: **تنيسون**، **براوننغ**، **ديكنز وكارليل**. بينما كانت أعمال **ثاكيري وراسكين والأخوات برونتي** لا تزال تحت مستوى الاهتمام. وبدأت الشاعرة تجري اتصالات مع أدباء عصرها، عبر المراسلة، والنقد، والمعارضة.

وأصبح عدد من معاصريها أصدقاء مقربين منها. ولم يكن وضعها الصحي يسمح لها بالمشاركة الشخصية في الندوات الأدبية، فاهتمت بالمراسلة، ومن الذين بادلوها الرسائل: **وورد سوورث**، **بو**، **كارليل**، وسواهم. وأضاف هذا كله حماسة جديدة إلى حياتها، وزخماً ظهرت بوادره في أدبها.

* * *

لكن انهيار صحتها، عام ١٨٣٧ أجبرها على تبديل سياق عيشها، فقد تأثرت رئتاها بالمرض، نتيجة الرطوبة الشديدة في أجواء لندن، فنصحها الطبيب بالانتقال إلى مناخ أكثر اعتدالاً. وهكذا سافرت لتقيم في **توركي**. وكان يرافقها، بصورة دائمة، واحد من أفراد العائلة.

وفي يوم، كان رفيقها أخوها **إدوار** الذي بلغ مرحلة رفيعة من العلم، وكانت تحبه، وتعتبره صديقها الأقرب إذ هو كبير اخوتها الباقين. ولما حان موعد سفره، رجت منه ان يبقى معها بضعة أيام، فنزل عند رغبتها. وبينما كان يقوم بنزهة بحرية في قاربه الشراعي غرق، وسبب لأخته حزناً غار حتى أعماقها، وأثّر فيها سلباً من الناحية العاطفية، لكنه، من جهة أخرى قوّى شخصيتها، وجعلها تستنفر طاقات لم تكن قد لامستها من قبل.

* * *

وهكذا عادت إلى **لندن** عام ١٨٤١، وهي شبه مقعدة، وأغرقت نفسها في الكتابة. وكانت النتيجة مجموعتين من أفضل ما كتبت من شعر. ونشرت لها الأولى تحت عنوان: «**قصائد**» عام ١٨٤٤ ثم «**أورورا لي**». وهذه الأخيرة تضم نقداً شعرياً لقصيدة الشاعر **روبرت براوننغ**.

هذا حدث هام في حياة الشاعرة، وها ان **روبرت** (وكان أصغر منها بأربع سنوات) يبعث اليها برسالة شكر لاهتمامها بشعره.

التاريخ يسجل انعطافاً في وجودها. العاشر من شهر كانون الثاني عام ١٨٤٥، هو بدء مرحلة التراسل بين الشاعرة والشاعر الذي سيدخل عالمها، ويحدث تحولاً جذرياً في كيانها.

استمرت الرسائل بينهما أربعة أشهر قبل أن يتم اللقاء الأول، وكان في بيت **اليزابيث**، بل في الغرفة التي لم تكن تقوى على مغادرتها.

براوننغ الشاب المتفجر حيوية وشعراً وجمالاً، يزورها، حاملاً

شكره وإعجابه. كان أول وجه حقيقي يطل على حياتها. أول إنسان يحمل إليها الأمل، ووعوداً بالرجاء والسعادة.

ويخفق قلبها، لا إعجاباً به فقط، بل وخوفاً منه، ومن نفسها. وازداد خوفها حين وصلتها رسالة مكتوبة بأحرف نارية، تحمل إليها كل الاعجاب، بل واعترافاً من الشاب الوسيم بحبها.

ماذا؟...

و**أليزابيث** لم تعد مراهقة. وهي لا تؤمن بالانفعالات السريعة.

فاعتبرت هذا البوح سابقاً لأوانه، بل ومبتذلاً. ولم تعد تسمح للشاعر بأن يتصل بها إلا بعدما بعث إليها برسالة تراجع، وعند ذلك فقط، رضيت أن تعود إلى استقباله في غرفتها. وظلت الزيارات سراً خفياً عن أبيها، الباقي على أخلاقيته المتعصبة، والرافض رفضاً مطلقاً ونهائياً تزويج أي واحدة من بناته...

وقد اشترك بعض الأخوة، مع الخدم في تدبير الزيارات، وإبقائها طي الكتمان. وبالطبع، كانت زيارات مثمرة لكلا الشاعرين، وراح الحب ينمو بينهما ويترعرع. و**أليزابيث** خائفة، غير مصدقة أنها تعيش حقيقة الأشياء، لا الحلم. كيف يمكن لهذا الشاعر الشاب أن يهتم بها، وهي تقارب عتبة الأربعين؟

وتمرّ الأيام فتزيدها ثقة به، وقرباً منه. واقتنعت نهائياً بأن حبه حقيقي. وطلب منها أن تعده بالبقاء على حبه والقبول به خطيباً.

وانقضت سنة من السعادة والتراسل، وكانت **أليزابيث** تكتب في

اليوم الواحد، رسالتين. وتركت من هذه المرحلة ثروة أدبية وإنسانية رائعة.

أما الزيارات، فجعلها **روبرت** مرة كل بضعة أيام، حتى لا يثير شكوك أبيها.

* * *

كانت الشاعرة واثقة كل الثقة بأن والدها لا يسمح لها بالزواج. وقد رفض أن يزوج أختيها، وهما أوفر منها عافية. وكان هذا موقفه من اخوتها كذلك!... لذا عقدت العزم على الزواج سراً، ثم السفر. وتم الزواج في ١٢ أيلول، عام ١٨٤٦، وسافر العروسان إلى **إيطاليا**، ومن خلف ظهر الأب طبعاً.

وهذا ما أثاره إلى أقصى الحدود. فغضب على ابنته المفضلة. وبقي غاضباً عليها حتى آخر يوم من حياته. بل اعتبرها في عداد الأموات، ولم يرد مرة على رسائلها، التي كانت تعود إليها مقفلة.

وأحزن الشاعرة أن يأخذ بعض اخوتها موقف أبيهم العدائي منها، إذ حسبوا أن **براوننغ** خطفها منهم طمعاً بثروتها.

* * *

قضى الزوجان بضعة أشهر في مدينة **بيزا** ثم انتقلا منها إلى **فلورنسا** التي بقيت محطتهما الرئيسة حتى وفاة **اليزابيث**.

وكانت المؤثرات التي تداخلت في حياتها قد شحنت أفكارها وعاطفتها بثروة شعرية هائلة، راحت تتفجر كالينابيع الغزيرة. فقد عرفت، ولأول مرة منذ فتحت عينيها على الوجود، الحب الحقيقي،

وحب شاعر يقدر كل حرف يقطر من طرف قلمها. وعرفت كذلك الحزن الكبير والألم، والوحشة، وتأنيب الضمير، نتيجة مغامرتها الكبرى. ثم هذا الباب الذي انفتح لها فجأة، ودعاها إلى العالم الجديد، فجر في عينيها الدهشة والذهول. وتحسنت صحتها، وعاشت معززة، سيدة بيت يخصها مع شريك عمرها، وقد أطلقا على هذا العش الهنيء اسم «**كازا غيدي**» وكانا يؤوبان إليه، من كل الرحلات التي حملتهما إلى مدن **أوروبا**.

* * *

بعد مرور ثلاث سنوات على زواجهما حدثت المعجزة الثانية في حياة الشاعرة، حين ولدت طفلاً صحيح الجسم، سليم العقل، بل ومتفوقاً. وقد اختارت له اسم **ويدمان** وسعدت به، وعاشت غنى تجربة الأمومة، وظلت الرحلات والمراسلات تصلها بأهم كتّاب وشعراء عصرها، كما بلغت أوج الشهرة والنضج، حتى أن بعض معاصريها، رشحوها لتحل مكان **وورد سوورث** فتكون شاعرة البلاط. أي تحظى بالشرف الأعظم الذي يبلغه أي شاعر في بلادها... لكن المركز أعطي لشاعر آخر هو **تنيسون**. وكانت ترفض أن تقيّم على أساس الجنس، وطلبت أن يُقدّر شعرها بنسبة استحقاقه، لا بحسب جنس كاتبه. وحتى في تلك المرحلة البعيدة كانت تقف من الأقلام النسائية موقفاً متقدماً.

فكتبت ذات مرة تقول: «**حين اتحدث عن المرأة، لا أفكر فيها كوحدة منفصلة عن الكيان الإنساني، ولا أقيسها بمقاييس خاصة بالنساء بل بما تمليه الطبيعة البشرية**».

لكن موقفها هذا لم يتمكن من السيطرة على النقاد، والتأثير عليهم إذ كانوا يقارنونها بسابقاتها من الشاعرات، واعتبرها بعضهم «**سافو**» عصرها.

وحتى الذين بالغوا في مديحها مثل **سيدني دوبيل** وضعوا لها حدود الجنس: «**لن تطلع شاعرة مثلها من الآن وحتى ألف سنة... ولكن لا السيدة براوننغ، ولا سواها من النساء، تستطيع أن تعطي قصيدة عظيمة**».

أما الشاعر **فيتزجيرالد** فكان له رأي آخر، وينسجم بالطبع مع نظرة معاصريه إلى المرأة، إذ كَتب عنها في مطلع القرن العشرين وبعد انقضاء نصف قرن على وفاتها:

«**كانت امرأة ذات عبقرية أصيلة. ولكن ما نفع ذلك كله؟ من الأفضل لها، ولبنات جنسها أن يصرفن اهتمامهن إلى المطبخ والأولاد**».

وأنا بالطبع، لن أناقش هذا الرأي أو سواه. مجرد عرضه، يرسم الأجواء التي انطلقت منها المرأة الكاتبة، ونوع التشجيع الذي واكب مسيرتها.

* * *

نعود إلى الشاعرة، والعالم الذي أحاط بها، ومؤثراته عليها، والقضايا التي شغلت فكرها. ففي قلب أوروبا النابض عاشت سنوات التوهج والتألق، ولم تلبث أن اندمجت في الأجواء السياسية السائدة في حينه، خصوصاً عودة **نابوليون الثالث** إلى حكم فرنسا.

ودار العديد من قصائدها ومقالاتها حول السياسة، إنما بقي هناك

موضوعان استأثرا بالجزء الأهم من أفكارها وهما: **الحب** (وكتبت عن تجربتها بالذات) ثم **الروحانيات** وما وراء الطبيعة المعروفة. وهذا كان نتيجة تأملات عميقة، عاشتها أوقات وحدتها، حين كانت تبحث عن قوة تتعلق بها، وتسند ضعفها وتزيل قلقها.

* * *

بلغت **اليزابيث** ذروة انتاجها بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٥٠ . وأغلب الظن أن ترشيحها كشاعرة للبلاط جاء في هذه المرحلة. ويمكن تصنيف شعرها، حسب ظهوره بالنسبة الى صدور الدواوين... على إثر زواجها وحتى عام ١٨٤٤ كتبت قصائد حبها، وكلها موجهة إلى زوجها. ثم قصيدة سياسية عنوانها: «**نوافذ كازاغيدي**» وضمنتها تجربتها في الحياة الايطالية. ثم «**اورورا لي**» وكان يروق لها أن تسميها: **رواية في قصيدة.**

ولما نشرتها عام ١٨٥٧ نالت تقديراً كبيراً، إن على صعيد النقاد أو القراء. ثم «**قصائد أمام الكونغرس**» وهذه مجموعة قصائد سياسية، لم تنل تقديراً يذكر، وكانت دون مستوى عطاء الشاعرة في مرحلة نضجها، نُشرتْ عام ١٨٦٠، وهي آخر ما صدر لها في حياتها. فإن صحتها التي انتعشت بفضل حياة سعيدة عرفتها برفقة زوج محب، وعطاء فكري وفني وافر، لم تلبث أن بدأت تتدهور تدريجياً، خصوصاً وأن وهج الحب الأول، بدأ يخبو، ولم تخل أيامها الأخيرة مع **براوننغ** من بعض مشاحنات. وهكذا عادت إلى عزلة السرير، تنتظر النهاية، إذ لم يكن هناك أمل في شفائها.

* * *

في التاسع والعشرين من شهر حزيران، عام ١٨٦١ أسلمت **اليزابيث** الروح في **فلورنسا**، وكانت وفاة سهلة، فقد غادرت العالم راضية، مكتفية بنصيب لم تتوقعه من نِعَم الحياة عليها. وبعد انقضاء سنة على رحيلها، صدرت «**القصائد الأخيرة**» وهي الأروع من شعرها الغنائي.

وظلت دواوينها تطبع، ويعاد نشرها، طوال المائة سنة التي تلت وفاتها. أما مراسلاتها مع **براوننغ**، فلا تزال تقرأ بشوق، لما تضمه، من إخلاص وتألق وعمق تفهم للعلاقة القائمة بين المرأة والرجل. بل ان هناك من يصنف هذه الرسائل من النوع العبقري.

لقد أحاطت بحياة الشاعرة قصص وحكايات جعلتها تبدو وكأنها بطلة أسطورية، والواقع أنه كان لها قدرها المميّز، فهي امرأة محظوظة من عدة وجوه؛ عرفت طفولة سعيدة، وحتى ضمن إطار العائلة الضيق، لم يكن ينقصها الحب والعاطفة، والإعجاب. ولقيت التشجيع من كل من أحاط بها، خصوصاً من أبيها الذي ساءت علاقتها معه فيما بعد، كما سبق وذكرت. لكن **أليزابيث** كانت تفتقد الحرية وفهم الآخرين افكارها ومطامحها، وهذا لم يحولها إلى اتجاه سلبي بل أغرقها في غمر من المعرفة والنعيم الفكري والروحي.

ثم في منتصف حياتها، وحين تنذر شمس التوهج بالأفول، جاءها الحب في شخص شاعر نبيل ومتألق. فتزوجت، وعاشت سعيدة، مكرمة، وزادت سعادتها وغبطتها نعمة الأمومة.

وإن إقامتها في وسط **أوروبا** ربطتها بكبار كتّاب وشعراء العالم، ووسعت دائرة مقدريها والمعجبين بأدبها.

لكن سعادتها الأعمق، كانت تقطفها من كتابة الشعر... إنه هدفها منذ طفولتها الأولى، وبلغت مرحلة تحقيق كل الأحلام والمطامح.

ومقابل ذلك عرفت الألم الكبير من جراء مرضها، ووفاة أخيها الشاب، وقسوة والدها، خصوصاً على إثر زواجها. لكنها بقيت، في حالتي السلب والايجاب، الفرح والحزن، تلك المرأة المترفعة، الأبية، والقوية الإِرادة والشخصية.

* * *

أما شعرها، فقد عرف في زمانها أقصى التقدير، واعتبرها **راسكين**، عام ١٨٥٦، «**الأعظم منذ شكسبير**».

لكن **فرجينيا وولف** قالت فيها عام ١٩٣٢ : «**إن المكان الذي تستحقه أليزابيث براوننغ هو مع أمثالها من الشعراء المنسيين**».

وهناك آخرون لا يلجأون إلى تطرف الموقفين، ويعتبرون الشاعرة عظيمة، في زمانها، وبقي من شعرها الكثير الذي يعاد طبعه وقراءته حتى يومنا الحاضر.

لكن قصتها الإِنسانية، باقية على توهجها، دليلاً على تفوق الإِنسان وانتصاره وقدرته على تخطي أقسى العقبات، ويبقى صوتها، آتياً من أعماق الزوايا المنسية:

«لست بوقا، ولا قصبة،
اذهب، واخبر الصيادين،
حين يفرشون شباكهم،

عند حافة النهر...
قل لهم: لن أمزق الشباك،
لن أجرح أيديهم فيما لو سقطوا،
فليتركوني بين أشجار البردي».

- إليزابيث براوننغ - إليثيا هايتر.
- إليزابيث براوننغ - دوروثي هوليت وبيتي ميللر.

هارييت بيتشرستو



«هل من الضروري أن يُكتب أدبنا كله بدماء القلب؟...».

كانت في زمانها، واحدة من ثلاث نساء، أعتبرهن النقاد وكتّاب السيرة عبقريات: **جورج صاند**، الفرنسية، **جورج اليوت** البريطانية، **وهارييت بيتشر ستو** الأميركية.

وهارييت هي موضوع كلامي. وهي، وإن حظيت بشهرة واسعة في المجال الأدبي، إلا أنها كانت سبباً أساسياً من أسباب اندلاع الحرب الأهلية في أميركا... حتى أن رئيس الولايات المتحدة الأميركية في حينه، **إبراهام لنكولن** قال، وهو يصافحها بإعجاب: «**هل هذه هي المرأة الصغيرة التي أشعلت تلك الحرب الكبيرة؟**»...

* * *

لا. لم تكن **هيلين طروادة**. ولا حملت السلاح، وتزعمت الحركات الثورية. إن تحريضها الأهم كان عبر الكلمة، ومن خلال كتاب نشر شهرتها في جميع البلدان التي يلم سكانها بقراءة القصص. وما ذلك الكتاب سوى روايتها الشهيرة «**كوخ العم طوم**». ومع أنها كتبت غيره، بل تخطّته في بعض أعمالها التالية، من الناحيتين الأدبية والفنية، غير أن الكتاب الأول، بقي أساس الشهرة، والشرارة التي أشعلت حريقاً، كانت نتيجته خيراً على شعب عاش طويلاً في أسر العبودية، هو الشعب الزنجي المستورد من **أفريقيا**، ليخدم الإِنسان الأبيض في **أميركا**. ويستغل، بل يُسْتَعْبَد، جيلاً بعد

جيل، إلى أن جاءت الكلمة، ومن ثم السلطة السياسية ذات الرؤيا البعيدة، فحررته.

* * *

سيرتها، مهمة جداً. وهي امرأة مميزة. ودورها فريد، في كل العصور. ولم يسبق لامرأة أو لرجل أن قام بالعمل الذي قامت به **هارييت**، وترك التأثير العميق الذي حفره كتابها الخالد في المجتمع الأميركي. ومن هنا، استحقت لقب الريادة. والارتفاع إلى مكانة سامية من التقدير، بل البقاء.

* * *

نراجع صفحات من حياتها، لنتعرف إلى الخلفيات التي جعلتها تتكرس لهذه المهمة التحررية: ولدت **هارييت** في ١٤ حزيران من العام ١٨١١ في **ليتشفيلد**، المدينة الواقعة بين التلال والبحيرات والأودية.

كان أبوها **ليمان بيتشر** رجل دين، حمل رسالته وراح ينشرها عبر الخطابات، والمقالات. وكان ذا مرتبة علمية رفيعة، ويحمل درجة دكتوراه، الأمر الذي لم يكن شائعاً في حينه.

أما أمها، **روكسانا فوت**، فلم تترك من أثر على ابنتها، سوى ما يغرسه اليتم في النفوس من قهر وحرمان.

كانت الطفلة **هارييت** في الرابعة من عمرها، عندما توفيت أمها، تاركة ثمانية أطفال ينتحبون حولها. وقدر لإثنين من أولئك الأولاد أن يصبحا من عباقرة زمانهم بينما تفوق الآخرون في الحياة والأعمال...

وقد غرست الأم، في ذاكرة الطفلة، صورة عذبة، للمرأة الذكية، المحترمة والمحبوبة من محيطها.

وحين وصفتها الابنة فيما بعد، صورتها ملاكاً يحمل بين أعطافه، إلى نبل الصفات، النضج والعاطفة والهدوء.

ومع أن الأب تزوج امرأة أخرى، إنما **روكسانا**، بقيت زوجته الأولى، ورفيقة أفكاره، وبالطبع أم أولاده.

أنهت الطفلة دراستها الابتدائية في معهد **ليتشفيلد**، وقد برعت في مرحلة باكرة، بالكتابة. كانت لها مقدرة فائقة، على التعبير عن أفكارها وعواطفها، بواسطة القلم. وكان لها من العمر إثنتا عشرة سنة، حين اختير أحد مواضيعها ليقرأ في احتفال مدرسي حضره الأهل. ولم يكن أبوها يعرف لمن المقال، فسأل عن صاحبته، ولما أخبروه بأن الكاتبة هي إبنته، كاد يطير فرحاً، وظل يردد في مجالسه: «**كانت تلك ساعة الفخر في حياتي**».

* * *

لا نلاحظ، في أدب **هارييت**، أي شعور سلبي أو عدائي تجاه زوجة أبيها، لأن تلك المرأة كانت جميلة، أنيقة ولطيفة. وربما كان الجو الطبيعي الذي خلقته في المنزل، هو ما جعل الكاتبة تنصرف إلى التركيز على القضايا العامة في المسرحيات والروايات الأولى التي كتبتها. وقبل أن تتجه في طريق الأدب، التقت أستاذاً من جامعة **يال** أحبته وخطبت له، وكانت في الثانية والعشرين من عمرها، ومنهمكة في التدريس، مع شقيقتها **كاترين**، في معهد أسسته وأشرفت على إدارته. لكن الخطبة انتهت نهاية مأساوية، حين تحطمت السفينة التي

أقلع فيها الخطيب في طريقه إلى **بريطانيا**.

هذه الحادثة تركت في نفس **هارييت** حزناً عميقاً، لم تخرج منه، إلا بمساعدة **كاترين** التي راحت تحمّلها مسؤوليات تربوية، كي تنسيها آلام القلب، وحرقة العاطفة. وكانت هي تحترم تلك الأخت، ذات الخط الريادي في الحقل التربوي، كما كانت صديقة حميمة لشقيقها **هنري** أحب الأخوة إلى قلبها.

وهكذا نرى الصبية، تنخرط في التدريس قبل أن تتكرس باندفاع للكتابة. وقد تابعت، في أثناء التدريس، علومها الجامعية في مدينة **هارتفورد**.

ولكن أقرب الناس إليها، لم يدركوا عمق الألم الذي ظل يخترق صدرها، ويحز في نفسها، ويوقظها في الليالي الموحشة، لتشهق وتبكي، ثم تمسح دموعها، مع شروق الشمس وتنهض لمواجهة نهار جديد.

في هذه المرحلة، أغرقت نفسها في المطالعة، فكانت تقرأ كل ما تصل اليه يدها من مؤلفات في شتى المواضيع. وبدأت تنشر قصصها في بعض المجلات المعروفة في تلك الحقبة. وفوجئت ذات يوم، بنيلها جائزة قدرها خمسون دولاراً، لأول قصة نشرتها في مسابقة دعت إليها مجلة «**الغرب**». ولم تلبث أن دخلت النادي الأدبي، وأصبحت معروفة لا في المدينة وحسب، بل في محيط الولاية، وحيثما تنشر قصصها.

* * *

لم تكن تلك المرحلة سوى مقدمات للخطوة الهامة التالية. فخلال

زيارة قامت بها إلى **ولاية كنتاكي**، تعرفت إلى مشكلة تعاني منها جماعات الزنوج، الذين كانوا يشرون ويباعون كالسلع، ولا يعتبرون من الجنس البشري، بل هم عبيد، خلقوا لخدمة الرجل الأبيض، وإنهاض منشآته، والكدح في مزارعه.

ولم يكن يكفي الكاتبة ذلك اللقاء السطحي مع المشكلة، لتؤلف كتابها، إنما البذرة الأولى غرست في صدرها، وراحت تتغذى، وتختمر ثم تتفجر في رواية هزت المجتمع وجعلت اسم صاحبتها يطير على أجنحة السحر، لا في بلادها وحسب، بل عبر القارات، واللغات الثلاث والعشرين التي نقل إليها الكتاب فور صدوره.

* * *

وقبل الحديث المفصل عن مسارات **هارييت** الأدبية، لا بد من الوقوف عند حدث آخر، مهم في حياتها. فقد قامت برحلة إلى شرق الولايات المتحدة، عام ١٨٣٤ لتحضر حفلة تخرج أخيها المفضل. ولدى عودتها، صدمت بنبأ وفاة صديقتها المقربة جداً **أليزا تايلر ستو**. وكانت زوجة لأستاذ جامعي هو **كالفين ستو**. فأخذت **هارييت**، على عاتقها، أمر تعزية الزوج، والتخفيف من ألمه، وأظهرت له عطفاً وحناناً، تحول فيما بعد إلى حب، دفع الاثنين إلى الزواج. وقد ازداد اهتمامها بالشؤون التربوية، مجال عمل زوجها، ولم ينقض وقت طويل على زواجها حتى أرسل **كالفين** في بعثة رسمية، لدراسة أوضاع التعليم والتربية، في **أوروبا**. وهي المؤمنة مثل والدها، بأنها خلقت لتخدم العالم، لم تتذمر من الوحدة، خصوصاً وأنها كانت حاملاً، وقد ولدت، قبل أن يعود الزوج، توأمتين، أصر على

تسميتهما: **أليزا تايلر** – اسم زوجته الأولى. **وهارييت بيتشر** – اسم الزوجة الثانية. وبعد الطفلتين وضعت ابنها **هنري**، وبالطبع، لم تعد تكتب. وكلما فاتحها أحد الأصدقاء بأمر الكتابة، كانت تتذرع بالأطفال، وغرقها في الأعمال المنزلية. وكتبت في مذكراتها، وفي رسائلها، حول هذا الموضوع، ووصفت، بكثير من الدقة، وضعاً تعرفه كل كاتبة، هي أيضاً ربة أسرة. فهناك القضايا الآنية الملحة، والطلبات التي لا تنتهي، والتي تبدو دائماً أهم من الكتابة، أي أهم من العمل الغامض، الذي لا يوقد الفرن، ولا يعجن الرغيف.

في تلك الفترة، كانت إحدى صديقاتها تلح عليها لتكتب، وتتخطى كل العقبات. حتى جعلتها تكتب في المطبخ، وبين القدور والطحين والسمن، والبصل. وهي في بعض ما كتبت، تمزج وصفات الطعام، مع تعليماتها للطباخة التي تساعدها، مع الأفكار التي تشاء مناقشتها: «**وهكذا مضينا في الكتابة، والطبخ، ورعاية الأطفال حتى انتهت القصة وأرسلتها في اليوم التالي إلى الناشر**».

* * *

إنه تمرين جيد وهام جداً، وإلا، فكيف كان لامرأة تشغلها الأمومة إلى حد الغرق... كيف كان يمكنها أن تتكرس للكتابة؟ وها هي تضع طفلها الرابع **فريديريك** فيبعث إليها الزوج، من رحلة تربوية أخرى رسالة يستعيدها فيها إلى مناخ الأدب: «**يا عزيزتي: قدرك مرسوم، وعلى هذا الأساس عليكِ أن تجري حساباتك...**».

وفي رسالة أخرى منه إليها، وقد كانت في غياب طال، بسبب ضعف صحتها: «**ليست هناك امرأة مثلك في الكون. من له تلك**

المواهب كلها، مع القليل من الادعاء؟ وتلك الشهرة، بلا تصنع؟ وذاك الأدب المترفع عن التفاهات؟».

* * *

إنّ ضيقها برتابة الحياة اليومية، والعمل المنزلي، مع تشجيع ذلك الزوج المؤمن بمواهبها، بل الذي جعلها تشعر بأن الموهبة التي أعطيت لها، هي إرادة إلهية: «**ومن نحن كي نعترض؟.. إعملي حسابك كي تقضي بقية حياتك برفقة القلم**»... إن ذلك دفعها الى العمل في التعليم.

لكنها لم تخرج من تجربتها في التعليم، وفي تربية أولادها، من دون إفادة نقلتها في مقالاتها وقصصها وملاحظاتها التي تجوز اليوم، مثلما كانت حدثاً في زمانها: «**أكثر ما يخيفني في التربية أنها قضية مثال، أكثر مما هي رصف كلام. يمكنك أن تتكلم ما استطعت، لكنك، بالتالي، تجد الطفل يتبع المثال الذي تبصره عيناه، لا الكلام الذي تسمعه أذناه... وان روح الأهل تكوّن روح الطفل...**».

وكانت **هارييت** قريبة إلى زوجها، بالفكر والروح، لكن أعمالهما فرقتهما، ولفترات طويلة. وهذا ما يجعل القارئ لسيرة حياتهما، يلاحظ أن رسائلها غنية في التعبير.

وقد ابتعدت ذات مرة مدة أحد عشر شهراً، تاركة الزوج والأولاد، لتستعيد صحة فقدتها، وتقوم بالرياضة، والحمامات المعدنية. ولما عادت، كانت قد استعادت قوتها، وباتت قادرة على تحمل أعباء الأمومة والزواج، ووضعت طفلها الخامس **صموئيل تشارلز**.

لكن هذه المرة كان دور الزوج في المرض، وازداد ثقل الحمل على

كتفيها، خصوصاً وأنها أصبحت المعيل الوحيد للعائلة. وقبل أن يعود الزوج من المصح، يصاب ابنها الأصغر بداء الكوليرا ويموت، فتستدعي إيمانها، وكل ما أوتيت من شجاعة، لتتحمل، ولتكتب إلى زوجها البعيد والضعيف كلمات تخفف من وقع الفاجعة: «**نصيبنا مثل سوانا... المرض دخل كل بيت. وكل عائلة فقدت شخصاً عزيزاً**».

* * *

ونتساءل: كيف وجدت الوقت لتكتب؟ وكيف استطاعت أن تخرج من سلاسل الهم، وظلمة الحزن، لتكتب؟... ونظنّ أن دافعها هو تحصيل المال لإعالة الزوج والأولاد. لكنها بدأت تحلم في عمل كبير. وكانت قضية العبيد، قد بدأت تنضج في فكرها، وتستولي على وعيها. لكنها كانت تجتاز مرحلة صعبة، بل قاسية: «**صار في امكاني أن أحصل أربعمائة دولار في السنة من دخل قصصي. إنما ذلك لا يسد العجز في النفقات. من الصعب أن أجبر نفسي على الكتابة كي أكسب مالاً، بعدما أشعر بالارهاق على إثر تعليم الأولاد، ورعاية الصغار منهم، وشراء الحاجات ورفو الجوارب وتصليح الثياب، أجلس لأكتب قصة أو مقالاً لإحدى الصحف...**».

لكنها تكتب لابنها، بعد ربع قرن من هذا التاريخ، عن هموم أخرى: «**كان قلبي يتفجر بسبب الظلم والقسوة المسلطين على العبيد. وكنت أصلي كي يلهمني اللّه، وسيلة أخدم بها قضيتهم، ويجعل صرختي لأجلهم تنتشر في كل مكان... أذكر عشرات**

المرات، حين كانت دموعي تتساقط على جسدك الطري، بين يدي، وأنا أبكي، عن الأمهات اللواتي سلخ منهن أولادهن...».

* * *

عام ١٨٥١ تاريخي في حياة الكاتبة. فهو تاريخ كتابة «**كوخ العم طوم**». وحال صدوره، عام ١٨٥٢، حررت رسائل إلى كل شخصية كبرى في العالم تهتمّ بقضية العبيد، وأرفقت كل رسالة بنسخة من كتابها. وجاءتها الأجوبة حاملة التشجيع والتقدير. كذلك اتبعت طريقة أخرى كي تجمع تبرعات مالية تساعدها في تحرير العبيد المرتهنين.

ولم يكن كتابها رواية خيالية، بل شاءت عبره، أن تعرض قضيّة العبيد، كما هي. لم يمر الحدث بسلام، فقد كان تجار العبيد يؤلبون الجماهير ضدها، ويهاجمونها بعنف. وواجهت خطر الاغتيال، مما دفع المسؤولين الى وضع حراسة دائمة حولها وحول عائلتها.

باع الكتاب في طبعته الأولى عشرة آلاف نسخة، راحت تتضاعف، وكانت ثلاث مطابع، تعمل ليلاً نهاراً كي تلبي الطلبات. وانتشر بسرعة، وفي كل مكان. وانتقلت الصرخة، إلى كل أذن صاغية.

وكتب الناس آراءهم، كذلك النقاد: «**هذا الكتاب أيقظ الإنسان في نفوسنا. لم يعد مسموحاً لكل من يقرأ الحرف، ألا يطالع هذا الكتاب**».

* * *

في **فرنسا**، كتبت **جورج صاند** مقدمة النسخة المترجمة إلى

الفرنسية، ودافعت عن الكاتبة ضد الذين اتهموها بضعف موهبتها: «**يقول البعض انها عديمة الموهبة! وما هي الموهبة؟... طبعاً لا شيء يقارن بالعبقرية... لا يمكنني القول انها كسائر الموهوبين، إنما لها عبقرية تحتاج الانسانية اليها: عبقرية الطيبة، لا تلك التي يعرفها الأدباء، بل عبقرية القديسين**».

* * *

ومثلما استقبل الكتاب بالتهليل في **فرنسا**، ترددت أصداء التأييد في **لندن**، ودعيت المؤلفة إلى زيارة المدينة، وأحيطت بالتكريم من كبار الشخصيات. كما لقيت إعجاباً مماثلاً بشخصيتها، جمالها الهادئ، وجهها الطيب، وعينيها المشعتين بالذكاء والبساطة. ويبدو أنها لم تكن موفقة في صورها، فكان اللقاء الشخصي يضاعف الاعجاب بها، وكتبت حول ذلك تقول: «**إن صوري الرهيبة تؤدي لي خدمة كبرى. فحين ألتقي الناس يبدون ارتياحهم، حتى أن بعضهم يفكر في أني جميلة، ويُعبّر عن ذلك بالكلام**».

وحين عادت من رحلة **أوروبا** كانت منتصرة على جبهتين: فقد ارتاحت من الأعباء المالية، وباتت تأمل أكثر من السابق، بقرب الموعد لتحرير العبيد.

* * *

وكان القدر لها بالمرصاد. فلم تكد الفرحة تبلغ مداها، حتى صدمتها الفاجعة الكبرى، بموت إبنها **هنري** غرقاً، وكان في سنته الجامعية الأولى. وتشرح، في رسالة إلى إحدى الصديقات، بأنها، كي تتقبل الحزن العظيم، تقارن نفسها بأم زنجية فقدت نصف أولادها،

ومن بقي منهم حياً، أُخذ عبداً: «**إني منسحقة، قلبي ينزف باستمرار. مرهقة حتى النخاع، وكل ما أستطيع أن أفعله هو الصلاة... كل ولد يموت يكون هو الوحيد عند أهله...**».

وراحت تنشر هذا الحزن القاتل في رسائل أخرى، للأولاد، للصديقات وأحياناً للريح والفضاء الرحب. وكتبت قصصاً عن تجربة الحزن. ولكي تستطيع قبول المأساة راحت تتداخل في أحزان الآخرين وتتعزى بها.

وفي صيف ١٨٥٩ عادت إلى **أوروبا**. وزارت **لندن**، والتقت **اللايدي بايرون**، زوجة الشاعر البريطاني الشهير. فشكت لها تلك ظلم زوجها، وسوء مسلكه، وأخبرتها عن الألم الذي لحقها منه، خصوصاً تشويه سمعتها.

وقُدّر للكاتبة أن تذوق طعم الحرب، وتشهد كيف تفقد العائلات شبابها، فأطلقت الصرخة من أعماق قلب مكلوم: «**هل من الضروري أن يكتب أدبنا كله بدماء القلب؟**».

ولم تسلم عائلة الكاتبة من آلام الحرب، فإبنها **فريديريك** الذي خدم قائداً في الجيش، أصيب في أذنه، مما أفقده السمع، وبعدما انتقلت إلى ولاية **فلوريدا** حيث لاءمها المناخ، مرضت إبنتها الصغرى بداء عصبي عذبها طويلاً قبل أن يقضي عليها.

ولم تعد الأم تستطيع الكتابة. فقضت فترة في الصمت والوحدة والتأمل. وكانت واعية كل القضايا حولها، لكنها سقطت في خمول ذهني وجسدي، استولى عليها، وجعلها تصاب بشلل نفسي. وجاءتها ضربة جديدة قاضية حين أبحر **فريدريك**، في نزهة تصور

أنها تشفيه من آلام الأذن. كانت وجهته مدينة **سان فرانسيسكو**. وعُرف أنه بلغها، لكن ذلك كان آخر خبر عنه.

* * *

الإيمان، يفعل العجائب، كذلك المناخ الذي يَسري في الكيان البشري، فيجمده أو يذيبه أو يحييه... وقد عادت الروح إلى الكاتبة، من جديد، وكتبت بعض أعمالها المتأخرة. غير أن النشاط الذي يذكر لها من تلك المرحلة، هو قيامها بجولات في الأندية الثقافية والجامعية، لقراءة قصصها، أو مقاطع من رواياتها. وقد كتبت عدة روايات منها ما تجاوز «**كوخ العم طوم**» فنياً، إنما بقي هذا الكتاب الأول ركيزة شهرتها. وكان في عائلتها من هو شديد الحماسة مثلها، لقضايا العبيد؛ انه أخوها المفضل، **هنري**، الذي كافح العبودية من خلال رسالة الكهنوت، وخلق لنفسه اعداء من المنتفعين بتجارة العبيد. وقد كتبت دفاعاً طويلاً عنه، إذ كانت مقتنعة بأن المحاكمة كانت تجنياً عليه.

وهارييت بيتشر ستو صارعت كثيراً، وطويلاً، وعلى عدة جبهات. والذهول، الذي كان رومانسياً في شبابها، بدأ يتحول إلى مرض، وصارت تنسى، وتضيع أو تغيب عن الحاضرين. وآخر ظهور لها كان عام ١٨٨٢ وذلك في حفلة أقامها الناشر على شرفها. وكان موضوع كلمتها نجاح فكرتها في تحرير عبيد الجنوب.

وبعد ذلك لزمت بيتها، وراحت تجمع أوراقها، ورسائلها، وتتلف منها ما لم يعد يحظى برضاها. وظلت، حتى آخر لحظة وعي تكتب. ثم بدأت تذوي، وظلت حتى الرمق الأخير، تعنى بزوجها المريض،

وتلتقي الأصدقاء، ولا تشكو. وقد توفيت في أول تموز عام ١٨٩٦، وكانت قد هجرت الجسد وخرجت منه روحه، قبل ذلك التاريخ... من كلماتها أختار خاتمة لقصتها:

«لقد غربت شمسي، وانتهى وقت العمل. كتبت كلماتي كلها، وأخرجت أفكاري إلى النور، والآن أنا ذاهبة، كي أستريح».

- حياة ورسائل هارييت بيتشر شتو - حرّرتها آني فيلدز.
- الموسوعة البريطانية (ج ٩).

الأخوات برونتي



«لأن الطريق قاسٍ وطويل، أوَ يجوز أن نحتقر
نشيد العندليب؟...»

نعبر مسافة قرنين، كي نتعرف إلى تلك الظاهرة الأدبية النسائية، التي لم يسبقها مثيل، ولم تعد تتكرر في تاريخ الأدب العالمي، إنها ظاهرة **الأخوات برونتي**: أديبات الفطرة والطبيعة، شاعرات العزلة اللواتي، برغم عشرات المؤلفات التي تناولت سيرهن وحللت أدبهن، بقين لغزا يثير الدهشة، ويطرح اسئلة كثيرة حول الموهبة، بل العبقرية...

* * *

ومن الصعب أن نفهم **الأخوات شارلوت، املي وآن**، بعيداً عن بيئتهن الغريبة؛ كما أنه لا يمكننا فصل الواحدة عن أختها وتقديم كل شخصية على حدة، لأن العلاقة كانت متشابكة، مثلما تتشابك خيوط الثوب الواحد، لتؤلف الشكل النهائي... وهذا لا يعني قرابة اللحم والدم فقط، بل والمشاركة الفكرية والوجدانية، منذ الطفولة الأولى، وحتى لحظة النهاية الأرضية.

* * *

العائلة **برونتي** تتألف من **الأب باتريك**، وهو خادم رعية، ورجل دين مثقف، هوايته كتابة الشعر ورواية الحكايات. والام **ماريا برانويل** سيدة لطيفة، مثقفة. «**تستطيع أن تكتب رسائل جميلة، وتعبر عن نفسها بوضوح**». لكن المحرك الأول للعائلة، هو الأب، الذي يطرح

على بساط البحث كل قضية تخطر في باله، أو تشغل فكره، من الأدب، إلى التاريخ والسياسة.

هذه صورة الأب في مرحلة طفولة أولاده، وقد رزقه اللّه ستة منهم، وهم حسب تاريخ ولاداتهم، **ماريا** مولودة عام ١٨١٣، **اليزابيث** (١٨١٥) **شارلوت** (١٨١٦) **باتريك** (١٨١٧) **املي جين** (١٨١٨) **وآن** (١٨٢٠).

العائلة تقيم في منزل ريفي فوق تلة مشرفة على السهول، لكن، لأسباب صحية، خصوصاً صحة الأم، تنتقل من بلدة **تورنتون** إلى **هاوورث**، إلى السهول المنبسطة، والطبيعة السمحة، والأنهر والمستنقعات، والعزلة... لكن النقلة لم تفد الجسم العليل، فلا تلبث الأم أن تفارق الدنيا، وهي تتحسر وتردد: «**يا الهي... يا أطفالي المساكين...**» اثنتان فقط وعتا وجه الأم، هما: **ماريا**، **وأليزابيت** وكانتا في السن الثامنة والسابعة. وأما الباقون، فلم يشعروا بطعم الفراق، ولم يدركوا هَوْل ما حلّ بالأسرة.

وبموت الام، يبدأ القدر كتابة الملحمة المأساوية لعائلة عاشت، مثلما يعيش الأبطال في القصص... وعرفت من آلام العيش أكثر مما تذوقت من ملذات الحياة.

* * *

كان لا بد من عملية إنقاذ سريعة، فالأطفال يحتاجون إلى حضن، وقد تطوعت الخالة **أليزابيت برانويل** لتكون الحضن الدافئ، وتحل مكان شقيقتها في تربية الصغار. ولم تعد تفارقهم حتى آخر يوم في حياتها. وكان عليها أن تقف شاهدةً على المآسي التي كتبت لهذه

العائلة. وتتجرع، مع الأب، كؤوس المرارة، الواحدة تلو الأخرى...

* * *

كانت الكأس الاولى وفاة الابنة البكر، **ماريا**، بداء التدرن الرئوي، وفي عمر لا يزيد على اثنتي عشرة سنة، وأعيدت أختها **اليزابيت** من المدرسة وهي مصابة بالداء نفسه، ولم تلبث هي أيضاً، أن فارقت الحياة، قبل أن يتمكن الطب من إنقاذها. وهذا ما جعل الاب يستدعي أولاده الباقين إلى البيت، ليتابعوا دراستهم على أيدي أساتذة خصوصيين.

وكان لهذا الحدث وقع أليم اخترق افئدة الأطفال، وحل منها في الأعماق، ودمغ حياتهم، بل وبقي أثره في كل فعل قاموا به، أو سعوا إليه.

والذي زادهم ألماً أنهم بعد وفاة الوالدة، عاشوا متقاربين، متلاصقين، يعتمد الواحد على الآخر، والكبير يساعد الأصغر منه.

ولم يخرجوا، شأن الأطفال في سنهم، ليتعرفوا إلى رفاق من جيلهم، بل اكتفوا بتلك العزلة، وقد أصبحت المحرك الأقوى، الذي دفعهم إلى ابتكار وسائل للتسلية، ليست مألوفة لدى الأطفال.

كانوا يخرجون إلى السهول وضفاف الأنهر في الصيف، ويعيشون مع الطبيعة، ويكتسبون منها المعرفة والحكمة. أما في الشتاء، فكانت سلواهم، حول المدفأة، المطالعة وتأليف الحكايات.

* * *

نعم، لقد اهتم الأب مع الخالة بتعليم الصغار أصول القراءة والكتابة. وخص الابن **باتريك** بدراسة اللغتين اللاتينية واليونانية، لأنه،

في نظره، سيكون الرجل، أي المتفوق على الفتيات اللواتي تقتضي التقاليد والأعراف ألا يتجاوزن حداً معيناً من المعرفة، كما أن هناك مواضيع من اختصاص الفتيات مثل الخياطة والطبخ، وهذه تعهدتها الخالة جيداً.

وكان الصغار يجدون في ذلك كله، لوناً من السلوى والمتعة، فقد وهبهم اللّه ذكاء وحيوية تفوق المعدل المألوف، وجعلتهم حياة العزلة يكبتون العواطف والأحاسيس، ويبحثون عن مجالات لتفجيرها... وهذا ما طبع شخصياتهم، الفتيات والفتى، بطابع الغرابة والتميز.

* * *

وفي يوم، عاد الأب من رحلة قصيرة قام بها إلى مدينة **ليدز** القريبة من **هاوورث**، وحمل معه هدية لابنه: صندوقاً يضم اثني عشر جندياً من خشب، يرتدون ثياب الاستعراضات العسكرية. وفرح **باتريك** بالهدية، وشاركته في الفرحة والهدية الشقيقات الثلاث، فأخذت كل واحدة جندياً وسمته باسم بطل من أبطال التاريخ، ثم بدأت الخطوة التالية، وهي احياء الجنود، عبر المغامرات والقصص المكتوبة. كان البيت محدوداً، والخيال جامحاً، واللعبة مغرية. وكان ذلك بدءًا لمغامرات كتابية استغرقت من الأولاد كل ذرة من الوقت والجهد.

* * *

هذه المرحلة هامة في تاريخ العائلة الأدبي، لأن الحماسة التي دبت في نفوس الاخوة، ثم التنافس على الكتابة، من العوامل التي دفعتهم الى ان يعيشوا الحياة الواقعية، وحياة أخرى موازية لها عبر أبطال القصص. وهذا ما جعلهم يتحملون قسوة العيش، في تلك العزلة،

وفي وسط يميل إلى الفقر أكثر مما يميل إلى اليسر، وجعلهم يتقبلون الواقع بشجاعة، بل ويسيطرون عليه، من خلال سيطرتهم على أبطال قصصهم.

وظهرت في كتابات تلك المرحلة، آثار الثقافة التي نهل منها الصغار، ان في الأدب أو التاريخ والشعر.

ولكن، هل كانت تلك الثقافة البيتية المحدودة كافية لتخلق أديبات عالميات، في مستوى **أملي وشارلوت برونتي؟**

الجواب: طبعاً «لا»... لا يكفي طموح فتاة نارية مثل **شارلوت،** تلتهم العلم التهاماً، وتطلب المزيد، وتعاني من انغلاق البيئة، وتغتنم فرصة سماح الوالد لها بأن تطلب العلم في معهد **روهيد** العالي.

العربة المغطاة تنقل كبرى الفتيات. وتبعدها عن العائلة، إلى حيث ستواجه، للمرة الأولى، العالم البارد والرفيقات الساخرات.

كان ثوبها القديم، وشعرها المتهدل، أبعد ما يكون عن الزي السائد. واستقبلتها الطالبات بالسخرية، ولم تخف حدة سخريتهن بعدما بدلت ثوب السفر، وارتدت آخر، لا يقل عنه بؤساً. وتصفها إحدى الطالبات فتقول: «**كانت شارلوت تبدو مثل عجوز صغيرة، خجول. وكانت عصبية نزقة الطبع. لكنها لم تلبث أن كسبت ثقة الطالبات واحترامهن، بما لها من مواهب متفوقة، خصوصاً في الشعر والأدب**». وكانت تتخلف عن المشاركة في اللعب، لقصر نظرها، (وهذا الضعف سيلازمها دائماً). كما أنها لم تأت هذا المعهد لتقضي وقتها في اللعب شأن الفتيات المترفات، بل هي هنا لتدرس، وهذا ما ستفعله بجد وتصميم. ولم تكن بحاجة إلى دراسة الأمور

العملية، بل كانت متعطشة إلىالاستزادة من دراسة الفنون والآداب، وكل ما يهذب العقل، ويجعل الروح تتسامى وترتقي.

وحملت **شارلوت** معها لوعة فراق الاختين الراحلتين، فكانت تتحدث عنهما إلى بعض الرفيقات، وفي رسائلها إلى الصديقة **إيلين**.

نتيجة جدها ونشاطها، تفوقت على طالبات صفها أولاً، ثم لم تلبث أن سجلت تفوقاً عاماً. وبَدلًا من أن تكسب صداقة الرفيقات عن طريق اللعب، باتت تجذبهن بقصصها الخيالية الرائعة.

وكانت ترويها بأسلوب مؤثر، حتى أن إحدى الطالبات، ذات مرة، أصيبت بنوبة، على اثر سماعها إحدى القصص، كادت تدفعها إلى حافة الجنون... ذلك أن **شارلوت** كانت تقص حكاياتها في الظلام، بعيداً عن سمع الناظرة.

* * *

لم تطل إقامتها في المدرسة أكثر من سنة، عادت بعدها إلى البيت لتعلم اخوتها. ثم بدأت تكتب. وقد اكسبتها تجربة المدرسة أموراً كثيرة، إذْ قوّت شخصيتها ومعلوماتها؛ وعاشت مع طالبات من بيئات مختلفة، واكتشفت أن معظم الفتيات من أسر ثرية، وهن راضيات عن وضعهن، قانعات بما هن فيه ويأتين المدرسة بلا حماسة أو هدف. وهذا ما جعلها تنقم عليهن، وتستوحي، من موقفهن اللامبالي، صور شخصياتها النسائية السلبية. وقد زادتها تجربتها هذه اصراراً على الصمود والتحدي، وعدم الرضوخ للواقع، بل تجاوزه دائماً إلى ما هو أفضل.

* * *

ماذا حلَّ بالبيت؟ كانت **املي** قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها، **وآن** الثانية عشرة. فأقبلت على تدريسهما. كما أن أستاذاً كان يأتي من **ليدز** ليعلم الأولاد إلى جانب الأب والخالة. وأقبل **باتريك** على الفن، فصار يرسم لوحات زيتية تلفت النظر. كما كان يكتب الشعر ويعزف الموسيقى. لكن هذا كله، لم يكن منظماً. فظل الفتى بحاجة إلى من يضبطه وينتقد اعماله، فلا يعطيها أكثر ممّا تستحق من التقييم. الجميع كانوا يمتدحونه، إلاَّ **شارلوت** التي صارحته، وحاولت دائماً أن تسدد خطاه، لكنه لم يعتبر آراءها، وأحياناً كان يظنها غيرى منه. ولم يدرك أن هذه الأخت تبحث عن القوة، وتقدرها، ولا تطيق الضعف، خصوصاً في الرجال... وهذا ما جعلها تقف منه موقفاً قاسياً، ولم تعطف على ضعفه حتى في حالات بؤسه وانهياره...

* * *

أما **املي** فراحت تعزف البيانو بمهارة. وتكتب الشعر، وتعلمت آن العزف والغناء. وكانت هي تؤلف أناشيدها، وتلحنها. ولم تكن الصغيرتان متحمستين للعلم شأن **باتريك وشارلوت**. **واملي** ذات القامة الطويلة، والشعر الأسود والعينين الزرقاوين، كانت قليلة الكلام، كثيرة العمل، فهي التي أخذت على عاتقها العمل المنزلي؛ ولم تترك اختها الصغرى، بل أبدت لها العاطفة واللطف، والتفهم. **وآن**، ذات الشعر الكستنائي، والعينين البنفسجيتين والبشرة الشفافة كانت أشبه بالملاك، وقد علمتها خالتها فن الخياطة.

إذًا، فإن العزلة الخارجية، كانت تدفع الأولاد إلى الدخول أعمق في عالمهم الداخلي. **واملي** ذات النزعة الروحية، الصوفية، تحب الطبيعة،

وتجد فيها العزاء والأجوبة عن أسئلة كثيرة. كما أن طبيعة السهول كانت تلهمها اللون، والنغم، والموسيقى، والأفكار السامية القوية. كان يكفيها الخروج إلى الطبيعة، لتتأمل التحولات وترافقها... وربما فضلت الطبيعة على الناس، وحتى على رفقة **شارلوت** التي كانت تخيفها. لكن هذا لا يعني الاستسلام، **فاملي** عنيدة، وجريئة، ومستقلة.

إذا خطرت لها فكرة تجهر بها ولا تخاف. وكانت تعاكس النظم السائدة، وتتطلع إلى مصادر إلهام أبعد من الأرضيات. أما **آن** فظلت شديدة الخجل إلى حد الذوبان والتلاشي... والأخ **باتريك** طريف الشخصية، يجذب من حوله ويسحر الناس بفنونه وأحاديثه إنما بقي الضعف يلازمه، وقد سقط من التجربة الأولى، فلم يستطع النهوض. وبدلاً من أن يطور مواهبه لتعينه، ظل إنتاجه طفولياً غير ناضج ولا مكتمل. وكان لهذا التخلف أثر كبير في انحراف سلوكه، وارتمائه في اليأس، إلى حد التلاشي.

* * *

لم تكن عائلة **برونتي** ثرية. لذا كان على كل فرد منها أن يبحث عن مصدر للرزق. ومجالات العمل محدودة، فالفتاة يمكن أن تختار واحداً من عملين: إما التعليم، أو التربية. وقد مارست الأخوات العملين، ففي عام ١٨٣٥ عادت **شارلوت واملي** إلى معهد **روهيد** كمدرِّستَيْن؛ الأولى أستاذة أدب، والثانية معلمة موسيقى. لكن **املي** لم تلبث أن عادت إلى البيت الذي افتقدته، كما افتقدت حريتها واستقلالها وسهولها الغالية. ولم تكن **شارلوت** راضية تماماً عن مهنة ترهقها ولا تعطيها، في المقابل، ما يكفي نفقات ضرورية. وكان

جاذب يشدها إلى التأليف، ومطرقة الضمير تقرع، وتدعوها إلى العمل الذي تحب: الكتابة.

وكانت قد نظمت بعض القصائد، فأحبت أن يطلع عليها من هو خبير في هذا المجال. وهكذا أرسلت نماذج من تلك القصائد إلى شاعر البلاط، **ساوثي**، وأخوها بعث قصائده إلى الشاعر **وورد سورث**، وجاءها جواب الشاعر رسالة طويلة وجدية، **فأكد أن عندها الشعر، إنما هناك عشرات الشعراء ينشرون أعمالهم كل يوم ولا أحد يسمع بهم. ثم هي امرأة. ولا يجوز، في رأيه، للمرأة أن تمتهن الأدب.**

وبالطبع، لم تتبع نصائحه، وإن احترمت جوابه. أما **باتريك** فلم يستلم من شاعره أي جواب.

جربت الأخوات التعليم. وكتبن مؤلفات المراهقة عن عالمين من ابتكار المخيلة - **عالم انغزيا، وجزيرة غوندال**. وسكبن في هذين العالمين الشعر والقصة، والأساطير. لكن ذلك كله لا يقوم بنفقات العيش. وهكذا عادت اثنتان منهما، **آن وشارلوت**، لتعملا مربيتين في أسر ثرية. **واملي** ظلت على عنادها، وتشبثها بالبيت.

ولم يكن سهلاً العيش مع عائلة غريبة، ومع سيدات متعجرفات، في معظم الأحيان، يعاملن المربية معاملة دونية، وهي ذات النفس الأبية، والعقل المتفوق... وهذا ما خلق الصراع العنيف الذي تفجر في النهاية، روايات خالدة: **جين آر (شارلوت)، وأغنيس غراي (آن)**.

* * *

هناك تجربة هامة في حياة الأختين **شارلوت** و**املي** وهي ذهابهما إلى معهد «**هيجير**» الداخلي في **بلجيكا**، لتعلم الفرنسية واغناء الذات بالثقافة الغربية. وكان مدير المعهد واستاذ اللغة الفرنسية **هيجير** رجلاً جذاباً، وفي الحادية والثلاثين من عمره، أي أكبر من **شارلوت** بست سنوات. وقد بدا لها مثل أبطال عالمها الخيالي، فراحت تبني حوله الأحلام وتعقد الآمال. وأبدى اهتماماً بأختها **املي** التي لم تتجاوب حتى مع حديثه. وقد وصفها بقوله: «**هذه الفتاة تتمتع بشخصية قوية، ومقدرة على فهم الأمور الأساسية، وعمق في التفكير وطاقة عقلية خارقة تدفعها إلى الترفع. كما لها مقدرة منطقية قوية، وهي ذات موهبة في الحوار غير عادية لدى الرجال، ويندر ما نجدها عند النساء. هذه الفتاة كان يجب أن تولد رجلاً. فهي تصلح لتكون قبطان سفينة إذ إن منطقها وثقتها بنفسها يقودانها إلى اقتحام الأهوال، كي تكتشف آفاقاً جديدة، ولا تثنيها عن عزمها أية عوائق...**»

لكن الاستاذ ظل عاجزاً عن إدراك الوجه الآخر لهذه الشخصية، ذات العاطفة المتوقدة، والقلب الطافح بالرحمة والمحبة للطبيعة ومخلوقاتها... كانت تبحث عن الحيوانات المتألمة، كي تحضنها وتداويها... ولم يدرك في ذات **املي** نزعتها الصوفية الباحثة عن القبس الخفي في الوجود.

* * *

لم يكن صراع الأخوات، في مرحلة نضجهن، أقل شراسة وقسوة منه في أيام الطفولة، فالعزلة جعلتهن يتهيبن العالم الخارجي، ولا

ينسجمن مع واقعيته، وهذا ما اكتشفته **املي** باكراً بفضل صفاء ذهنها، ومقدرتها الروحية الفذة على اختراق العوالم المجهولة، واكتناه أسرارها. أما **شارلوت**، فعاركت الحياة، وخبرتها بحلوها ومرّها، واحترقت بنيران الحب الصعب المنال، والذي عاشته من طرف واحد، كما تظهر رسائلها إلى صديقتها **ايلين** وإلى الحبيب **هيجير**، مدير المعهد، واستاذها في اللغة الفرنسية. كانت رسائلها تحمل قرار نفس ناضجة، وارادة واعية، كما نقلت إليه الضعف العاطفي الذي جعلها تقول في إحدى تلك الرسائل: «**إن الفقراء، يا سيدي، لا يحتاجون إلى الكثير ليقتاتوا... يكفيهم فتات موائد الأسياد**»...

لكن «السيد» كان مرتبطاً برابطة زواج لم يشأ أن يهدمه. كما أن اهتمامه **بشارلوت** ظل ضمن حدود المهنة، ولم يَتَخَطَّها. لكنها لم تخرّ في حلبة الصراع، مثلما سقط أخوها، بل ارتفعت على آلامها، وحولتها إلى المجرى الايجابي، لتصب في تيار الكتابة الابداعية.

وكان لها، من محيطها، ما يشغلها عن الانهيار، فهناك الأخ البائس والأب المريض، وهناك **املي** وقد اكتشفت قصائدها مصادفة، إذ إن هذه الأخت كانت تكتب القصائد، ثم تضمّها في مجموعات صغيرة، ولا تأمل في نشرها. وألحت **شارلوت** أن تخرج بعض القصائد لتنشر في مجموعة مختارة، من شعر الاخوات الثلاث وإنما تحت أسماء مستعارة، وأسماء ذكور، وهكذا صدر الديوان الثلاثي تحت أسماء: **كورير، أليس، واكتون بيل**. وقد باع نسختين لا غير.

وتحت اسم «**كورير بيل**» وضعت **شارلوت** روايتها الأولى، وطافت بها على الناشرين وكانت تعاد إليها مع الاعتذار.

وفي إحدى المرات استلم الأب الرزمة المرتجعة، وقال لساعي البريد:

- **كورير بيل لا يقيم هنا.**

إذ كان التأليف والنشر يدور في عالم بعيد عنه.

لكن ذلك لم يحدث مع روايتها التالية «**جين آر**». فقد صدرت مع رواية **املي** «**مرتفعات وذرينغ**» في جزءين. ورواية **آن** وعنوانها «**أغنيس غراي**». واستقبلت الرواية الأولى بحماسة جديدة، فطبعت ثلاث مرات خلال أشهر، أما «**مرتفعات وذرينغ**» فلم تفهم في حينه، لا من القراء ولا من النقاد. وحتى **شارلوت** لم تفهم عالم اختها. ورواية **آن** المستوحاة من واقعها وتجاربها، اعتبرت عملاً جيداً، إلا أنه ظل دون عبقرية الاختين.

* * *

كانت تلك ذروة الأيام الهانئة التي عرفتها عائلة **برونتي** إذ إن الابن، **باتريك** لم يلبث أن توفي، عام ١٨٤٨، وبعده مرضت **املي** وفارقت الحياة، وتبعتها **آن** في غضون أشهر.

وبقيت **شارلوت** وأبوها، تتحمل الألم والحزن الكبير، وتؤاسي الرجل الذي كتب له القدر أن يشهد موت أولاده جميعاً، إذ إن **شارلوت**، التي انصرفت إلى التأليف، ووضعت روايتين، وخرجت إلى عالم الأدباء والشعراء، لتتذوق بعض ثمار الشهرة، تزوجت عام ١٨٥٤ مساعد أبيها واسمه **نيكولز**. وكان زواج توافق أكثر منه زواج حب. وكانت حاملاً حين ضربتها لعنة العائلة - التدرن الرئوي - ولم يمهلها المرض، فتوفيت في آخر حزيران سنة ١٨٥٥ قبل أن تلد طفلها.

ومع رحيلها، ينغلق الباب على ملحمة **آل برونتي** في الحياة، كما في التأليف. لكن عملها، وعمل اختها **املي**، بقيا يكتسبان قوة وتقديراً، مع مرور الزمن، مسجّلين التأكيد أن العبقرية لا يحدها زمان ولا مكان.

- البرونتي الأربعة - تأليف لورانس واليزابيث هانسون.
- الموسوعة البريطانية (ج ٢).

جورج إليوت



«إنها اعظم إمرأة مشت على الأرض... هي شكسبير على صورة أنثى...».

كتبت الملكة **فكتوريا** في دفتر يومياتها، على إثر قراءة رواية «**آدم بيدي**»: «**لقد تركت انطباعا عميقا في نفسي. البرت (زوجها) أحبها واهتم بها كثيرا..**»

ولم تكتف ملكة بريطانيا في اوج عهود الامبراطورية، بهذا التقدير، بل كتبت الى عمها **ليوبولد**، وكان ملك **بلجيكا**، رسالة جاء فيها: «**اذا كنت حتى الآن، لم تقرأ «آدم بيدي» وهي رواية لجورج اليوت، نشرت قبل اشهر، انصحك بقراءتها. لم يكتب مثلها منذ زمن بعيد..**»

وتوجّهت برسالة اخرى الى ابنتها: «**ابوك فرح فرحا عظيما بقراءة الرواية. وانا اقرأها حاليا للمرة الثانية. هناك عمق في ادراك النفس البشرية وحقيقة الشخصيات..**»

وهذه الملكة التي هيمنت على بلادها، سياسة وفكرا وفنا، واخلاقا، لم تأنف ان تطلب من سكرتيرها ان يقتطع توقيع الكاتبين **جورج اليوت** وزوجها **جورج هنري لويس**، من رسالة تعزية، وردته منهما، كي تحتفظ به بين محفوظاتها الخاصة.

* * *

ولم تكن الملكة المعجبة الوحيدة بأدب **اليوت** التي اعتبرت «**اعظم امرأة في تاريخ الادب الانكليزي**» والتي قال فيها صديقها

ومعاصرها الفيلسوف **هربرت سبنسر**: «**انها اعظم امرأة مشت فوق الارض.. هي شكسبير في صورة انثى**» فقد انهال عليها الاعجاب، والنجاح السريع، من كل الجهات. ومثلما عرفت في حياتها الالم العظيم، كذلك عرفت الانتصار، والنجاح الاعظم. وهي مثل سابقتها في اختيار اسم مستعار «**جورج صاند**» رسمت طريق حياتها، بكثير من الاستقلال والحرية... انما تختلف عن صاند بأنها لم تنصرف الى المغامرات العاطفية، بل عاشت بجدية، مكرسة وقتها واهتمامها لأدبها، ولرجل واحد استطاع ان يستقطب اهتمامها وحبها.

* * *

واسم الكاتبة، في الاصل **ماري آن** (**او ماريان**) **إيفانز**. ابوها **روبرت ايفانز** رجل اعمال مرموق. توصل الى مكانته في تخمين المباني والاشراف على شق الطرق وبناء الجسور، بفضل اجتهاده لا علمه. وقد تزوج **كريستيانا بيرسون**، والدة **ماريان** عام ١٨١٣، في اثر وفاة زوجته الاولى؛ وكان له منها ولد اسمه **روبرت** وابنة اسمها **فرانسيس لوسي**. ثم ولد له من الزواج الثاني الابنة **كريستيانا**، والابن **ايزاك بيرسون وماريان**، الصغرى اطلت على الحياة في ٢٢ تشرين الثاني من العام ١٨١٩ . وكانت العائلة تقيم في وسط انكلترة؛ وحين بلغت **ماريان** الخامسة من عمرها، قرر الاب الانتقال الى منطقة **كوفنتري**، حيث وجد بيتا أوسع. يؤمّن الراحة للجميع. ومن هذه الخلفيات، في المكان والطبيعة، استلهمت الكاتبة فيما بعد، عناصر رواياتها وقصصها. وهي القائلة إن «**الحياة الانسانية، تحتاج الى ارض تجذر فيها الذكريات وتتشابك مع المكان**».

وحبها الاول للارض، بقي كنزها الخفي، تحمله في طيات صدرها، اينما انتقلت، وحيثما حلت. وكانت تسعد كثيرا بمنظر الارض المغروسة.

* * *

هناك حادثان اثرا في طفولة **ماريان**: الاول وفاة الاخ الاكبر **روبرت** وحزن العائلة عليه. ثم اعتلال صحة الأم، مما استوجب ابعاد الاولاد، الى معهد داخلي.

هذا الانفصال المبكر، عن الحضن الدافئ، ترك آثارا سلبية في نفس الطفلة، خصوصاً حين ابتعدت عن الاخ الاصغر (**ايزاك**) وكانت متعلقة به، وتعتبره خاصا بها وحدها، وقد رافقته فترة الى مدرسة في الجوار تديرها الآنسة **مور**. وهذا الانفصال الجديد، بينهما، سوف يتعسها، وان بقي في صدرها حب خاص لذلك الاخ الاقرب اليها سنا، والذي سيطر على طفولتها.

وقد رافقت اختها **كريستيانا** الى معهد داخلي، تديره الآنسة **لاثوم**. والسن الخامسة مرحلة صعبة. فالنبتة لا تزال في طور البرعم الطريء، وهي تحتاج الى العاطفة والحنان... ولكنها واجهت العكس تماما: برودة في الجو، وقسوة في التعامل مع الكبار... وصارت تنتابها نوبات من الرعب، توقظها في الليل، وهي تصرخ وتبكي. ولا يهدأ روعها، الا حين تغمرها الفتيات الاكبر سنا.

وكان الاب يحس بالوضع، ويحاول ان يلطف الاجواء بأن يحضرها الى البيت، في العطل الاسبوعية، والفصلية، او حين تصاب بمرض.

ومع الوقت، اكتشفت انه عليها ان تتقبل وضعها الجديد. وللتعويض من النقص العاطفي، انصرفت الى القراءة، وراحت تغرق في الكتب اكثر فاكثر. وكانت بطيئة في بادئ الامر؛ غير ان هذا البطء جعلها تستوعب، وتتعمق، وتحفظ كل ما يمر بها من افكار وحكايات. كما جعلها انصرافها الى المطالعة، تعيش في شبه عزلة عن الرفيقات ومجتمعهن. وكن ينادينها «**الام الصغيرة**» نسبة الى نضجها الباكر.

وظلت تعوض من نقص الجمال بالاناقة البالغة، وتكره ان تعبث الرفيقات بثيابها. ولم تكن، في تلك المرحلة، تطيق اللعب مع الاولاد، بل تفضل الحديث مع الكبار.

عام ١٨٢٨ انتقلت **ماريان** الى معهد داخلي آخر، وكانت في سنتها التاسعة. وتعرفت الى كبيرة المربيات في المعهد **ماريا لويس**، «**فتاة في العشرين من عمرها، تغمز باحدى عينيها بطريقة عصبية غير محببة**». الا انها كانت حاضرة البديهة، لطيفة. وقد اهتمت بالطفلة، بل تبنتها. ودامت الصداقة بينهما اربع عشرة سنة. وكان لهذه المربية اكثر من اثر في حياة الصغيرة، اذ عوضتها من حضور الام الحقيقية. وان استغراق الكاتبة فيما بعد، في التحليل النفسي، لشخصيات رواياتها، واهتمامها الروحي، نابعان من هذه العلاقة، لان **لويس** قامت بدور المربية والاخت الكبرى، بل الام المرشدة. والصغيرة خجولة، تختار الزوايا وتتأمل الكبار من بعيد، وحين بلغت الثالثة عشرة من عمرها، كانت قد حفظت كل ما يجب حفظه. وحين انتقلت الى مدرسة الآنسة **فرانكلين**، في **كوفنتري**، لم تنقطع عن

مراسلة **لويس**؛ لكنها في المعهد الجديد، عرفت الاختلاط بطالبات من بيئات مختلفة؛ كما بدأت مواهبها تتفتح. وراحت تدرس الفنون، من موسيقي، ورسم، وتنسيق زهور، الى جانب دراسة اللغة الفرنسية.

لكن الملاحظة الجديدة في حياتها هي بدء تفتّح موهبة مميزة في الكتابة. كذلك تابعت قراءة كبار الكتاب، في الشعر، والنثر والفلسفة.

* * *

توفيت الام **وماريان** في السابعة عشرة من عمرها، ولم يؤثر فيها الحدث كثيرا، اذ ان الام كانت مريضة منذ سنوات، وانفصالها عنها حدث في سن مبكرة؛ فقربها الحقيقي، ومنذ بدء حياتها، كان من ابيها الذي عودها ان يصطحبها، منذ الطفولة، الى عمله، حيث تقف الى جانبه، او تجلس في حضنه، وهو يبحث الاعمال مع المزارعين والملاكين... وكان هذا الاب فخورا بها وقد شجعها على شراء الكتب، ومطالعتها، ودفعها الى تعلم اللغات: **الايطالية، الالمانية واللاتينية**، فضلاً عن **الفرنسية**...

وقد تجلى حزنها على امها بعزوفها عن الحياة المرحة. وراحت تزور المرضى ودور العجزة. وبالطبع، لم يكن ذلك بالنشاط الموحي، لفتاة لها طاقاتها الفكرية والابداعية. وقد عبرت عن وضعها هذا، حين كتبت: «**قد تحاول، انما تظل عاجزا، عن ادراك معنى ان تكون لك طاقة رجل عبقري، بينما انت ملزم بأن تتحمل عبودية حياة امرأة**».

* * *

عام ١٨٤٠ كان حدا فاصلا بالنسبة الى الفتاة، اذ تحولت من تكرّسها الديني، الى اعتناق الفكر الحر، الامر الذي ضايق الاب، والمربية **لويس**. لذلك قبلت ان ترافق الاب الى محافل العبادة، واحتفظت لنفسها بالافكار الحديثة.

في هذه المرحلة، انكبت على ترجمة «**حياة المسيح**» من اللغة الالمانية، وهو عمل ضخم، يقع في الف وخمسمائة صفحة؛ اضجرها العمل، انما كان افضل تمرين لتمرسها بالكتابة بنفس طويل... وكم كانت في حاجة الى ذلك، كخلفية متينة، لما اقدمت عليه، فيما بعد: كتابة الروايات.

* * *

توفي ابوها في السادس من حزيران، عام ١٨٤٩، بعدما ارهقت من العناية به، في فترة مرضه، ثم من اشفاقها عليه، وهي تراه يتحول من الرجل المعافى القوي، الى مخلوق ضئيل ضعيف. وقد حزنت عليه، بقدر ما تحررت من العبء. وبما انه لم يخلف ميراثا يذكر، فقد اضطرت **ماريان** الى الاعتماد على النفس. وبدأت تكتب في مجلة «**وستمنستر**» وكانت مجلة النخبة الادبية والفكرية، وتخصّ صديقها **تشابمان**، وهو بدوره صديق الفيلسوف **هربرت سبنسر**. وكانت تلك فرصتها للتعرف الى الفيلسوف عن كثب. وكانت علاقتهما غريبة؛ فهو يقدرها، لفكرها، وذكائها، ولا يكترث لها، بسبب شكلها العادي. وهي، لم تكن تحس هذا النقص، في انوثتها وجمالها، الا حينما تجتمع به. وقد توافق وصفه لقبح المرأة، مع تفاصيل شكلها ووجهها وهو الذي اعتبر الجمال من اسباب السعادة... وكان يفضل

الجمال بمقاييسه الاغريقية... هذه الناحية من شخصيتها ابعدته عن فكرة الزواج بها، غير انه احتفظ بصورتها حتى لحظة وفاته.

* * *

وظلت **ماريان** تملأ الفراغ بالكتابة، فتراجع الكتب الصادرة حديثا، او تدبج المقالات النقدية، لتكسب مالا، يقيها العوز. والتقت في هذه المرحلة الصحافي اللندني المعروف في حينه: **جورج هنري لويس**. وكان متزوجا امرأة جميلة، ثرية، وعديمة الاخلاص.. إذ تركته، ولحقت رجلا آخر، وراحت تنجب منه اطفالا، اضافة الى اولادها من **لويس**. وبما ان الطلاق محرم، فقد عاش الزوج اتعس حياة. وكان في هذا الوضع، حين دخلت **ماريان** حياته، واحبته غصبا عن الطبيعة. فهو لم يكن رجلا وسيما، بل يميل الى القبح، حتى ان اصدقاءه لقبوه بـ «**القرد**»... لكنه كان من اطرف الشخصيات؛ ذكيا، سريع الخاطر، وعميقا. معه، بدأت حياتها الجديدة؛ فقد ساعدته في الاعمال الادبية، كما قررت في تموز من العام ١٨٥٤ ان تدخل حياته، وتعيش معه كزوجته. وهذا، بالطبع، ليس امرا عاديا. وكان عليها ان تشرح لصديقاتها، كل واحدة، على حدة، مبررات قرارها، كما ثارت على القوانين المجحفة التي تعاقب الضحية، وخسرت عطف اخوتها.

وكان زواجها بـ «**لويس**» كل ما تحتاج اليه روحها للانطلاق. وقد بدأت فعلا مسيرتها الكبرى على دروب الابداع. واختارت اسم **جورج إليوت**، توقع به، وتختبئ خلفه. وكانت أولى الروايات التي ظهرت لها «**آدم بيدي**» وذلك عام ١٨٥٩ . ولم تكن صبية ناشئة، اذ

كانت قد بلغت الاربعين، الا ان تجارب السنين، وكثافة الخبرات والمطالعات، تجلت في هذا العمل، الذي لفت كبار الادباء، امثال **ثاكيري وديكنز**، وكانا اول من خمن أن «**الكاتب**» امرأة.

* * *

عاشت إليوت في عزلة تامة عن المجتمع، لأن وضعها العائلي لم يكن يجتذب السيدات الراقيات الى دارها. وظل حولها بعض الاصدقاء ونخبة من المفكرين، والفنانين والفلاسفة، المتحررين من عقدة التقاليد والاعراف. وبالطبع، كانت في اقصى حاجة الى تلك العزلة كي تنصرف الى الكتابة، وكان زوجها يسير على خط متواز، وان لم تبلغ اعماله الاهمية التي بلغتها هي؛ الا ان فضله عليها كبير؛ كان درعها، وحماها، والحارس الامين، لعواطفها، واحاسيسها المرهفة، حتى انه كان يخفي عنها كل نقد سلبي، و «يضيّع» رسائل صديقاتها، اذ شعر بأن هناك ما قد يسيء الى مشاعرها. وكانت حمايته هذه تزداد كثافة في خلال فترات الانتاج.

وكتّاب سيرتها، والنقاد، رأوا في ذلك مبالغة، ووضعا غير طبيعي، خصوصا وان الكاتبة، كانت راجحة العقل والمنطق، قوية الشخصية؛ الا انه فاتهم ادراك الحساسية الشديدة للنقد والتي فهمها الزوج من اوّل الطريق. وحسها المرهف جعلها فريسة لنوبات صداع، تطرحها في الفراش، عاجزة. كما كان مناخ لندن الرطب، لا يلائم صحتها. لذا اختارت منزلا في الريف، لتتمكن من متابعة العمل.

* * *

طبعا، هذه الاوضاع الشخصية، لم تؤثر على تقدمها، وانتشار

أدبها، وانشغال النقاد والندوات الادبية بها وبات يقصدها كبار المفكرين، من كل صوبٍ، للتعرف اليها. ومن صداقاتها: **الفيلسوف سبنسر**، الشاعر **روبرت براوننغ**، **الموسيقي فرانزليست**، **تنيسون ترجنيف**، **وديكنز** وسواهم... ومن البعيد، بدأت تردها رسائل الاعجاب من شخصيات رائدة امثال: **هارييت بيتشر ستو**، الزعيمة النسائية، او من نساء عاديات، اكتشفن في أدبها تعزية لأنفسهن، وتعبيرا عما يخالجهن...

وهناك قصة جديرة بالتنويه؛ فإن ارملة تدعى **إلماستيوارت** ظلت تراسلها طوال ثماني سنين وترفق كل رسالة باحدى محفوراتها الخشبية. وكانت تسميها «**بطلتي**»، و «**معبودتي**» بينما اعتبرتها **إليوت** ابنتها بالروح. وقبلت طلب **إلما** بأن تدفن الى جانبها، حين وفاتها، وحُققت وصيتها عام ١٩٠٣ .

* * *

اما تلميذ **سبنسر** وهو فيلسوف اميركي يدعى **فيسك**، فقد كتب الى زوجته رسالة، يصف فيها **جورج إليوت**، حين تعرّف اليها.واقتطف من الرسالة ما يزيد في اضاءة جوانب خفية من شخصية الكاتبة: «**انها لا تخيف. وهي عادية الجمال. لا ادري لماذا تبقى صورها محجوبة عن النشر، مع انها افضل بكثير من جورج صاند. طبعا ليست متألقة الجمال. لا تتوقعين ذلك في السن الثانية والخمسين، لكن تقاطيع وجهها متناسقة؛ انفها عادي، عيناها زرقاوان ومعبرتان. فمها كبير، انما يصبح جذابا حين تتحدث. شعرها ضئيل، تغطيه قبعة من الدانتيل. وهي تبدو بسيطة، صريحة،**

محترمة ولطيفة، وفخورة جدا بزوجها، محبة له. اقر بأني لم اقابل امرأة مثلها في حياتي؛ فهي ليست مسترجلة، بل مجبولة بالانوثة، مظهرا وتصرفا. وتبدو وكأنما وجدت لتحضن الاطفال. انما لها قدرة خارقة على الجدل الفكري لا يضاهيها فيها اذكى الرجال... ماذا؟... اقول اذكى الرجال؟... اني لم اعرف، في حياتي، رجلا يقف في موازاتها سوى هربرت سبنسر»...

* * *

هذا نموذج من اراء الفلاسفة الذين عاصروها وعرفوها، فماذا كان رأي الكتاب والروائيين؟

في احدى الحفلات، اقترح **جورج هنري لويس** ان يشرب الجميع نخب **ترجنيف**، «**أعظم روائي في عصرنا**».. فرد عليه الكاتب بقوله: «**اني آتي في الدرجة الثانية، او الثالثة، بعد ديكنز، جورج إليوت أو جورج صاند**»... وكانت **إليوت** الوحيدة الحية بين المذكورين...

اشرت الى اهتمام **ديكنز وثاكيري**، بباكورة اعمالها، حين اعترفا بأن «**كاتبة موهوبة تطل على الوجود...**» وبالطبع، كان ذلك في المرحلة الاولى.

ولم تسع كثيرا لتحظى بتقدير القراء والنقاد، فان اعمالها فرضت نفسها. ومع انها كانت تفضل التقدم عن طريق التطوير لا الثورة، الا انها كانت عميقة الادراك لماهيتها، متحكمة بعملها. وهي اول من فتح الاعين وايقظ الوعي على ذاتية الشخصيات؛ وقد اهتمت بتيار الوعي، قبل مجيء **فرويد**. واكتشاف التحليل النفسي. وكان وعيها يشمل العقل والقلب معا.

استوحت قصصها من الحياة، كما ان شخصياتها كانت حقيقية، واقعية، لا اسطورية. باختصار: ان **إليوت** اوجدت لنفسها عالما روائيا خاصا بها، ومن هنا اهميتها. وقد بهتت صورتها، على إثر وفاتها، لكن الاهتمام باعمالها، عاد واستفاق على ايدي النقاد المعاصرين.

* * *

يقول احد كتاب سيرتها: ان تاريخ رواية **إليوت** مرتبط بتاريخ حياتها، **بجورج لويس**.

وهذا صحيح. إذ انها بدأت معه، وبوفاته، توقف عطاؤها البهي. وقد توفي عام ١٨٧٨، على إثر مرض قصير. فلم تحضر جنازته، وانطوت على نفسها، واغلقت الابواب والنوافذ. خادمتها وحدها، كانت تعرف عمق آلامها، وهي تسمع صرخاتها تترجّع بين ارجاء المنزل. ورفضت استقبال اي من الاصدقاء. وظلت شهرا، لا ترى نور النهار، مع انها كتبت قبل وفاته ببضعة اشهر أن «**نصف الحقيقة البشرية / تبقى خفية / ان لم تنرها عين الحزن**».

ثم عادت فغلبت العقل على العاطفة وهي القائلة: «**ان الاموات يستمرون احياء في عقول الذين تأثروا بهم...**».

وفي رسالة الى صديقة عزيزة تقول: «**اني مقرّحة. كل مغرز إبرة في كياني ينضح بالألم. لا اطيق رؤية احد من الناس. وحين تتحسن حالي، استقبلك**».

وفي ذيل الرسالة توقيعها: «**صديقتك المحبة، ونصف الميتة**»...

* * *

بعد انقضاء شهرين على وفاة **لويس** قامت الى مخطوطاته تقرأها، وتعدها للطباعة. لكنها ظلت تصد الاصدقاء. حتى صديقها العزيز **سبنسر** لم يحظ منها بالاستقبال.

ولم تكتب شيئا مهماً طوال هذه الفترة، وتابعت اهتمامها بعائلة **لويس** من زواجه الاول، وهي التي اعانت الاولاد والزوجة على الحياة، وامدتهم من مالها الخاص، إذ كان دخلها ارفع من دخل زوجها، لكن الحساب كان مشتركا بينهما. وكذلك العطاء. فقد كان **لويس** الرفيق المثالي، والمكرس بلا حدود. وكانت هي محور اهتمامه حتى آخر لحظة. إذاً، فمن الطبيعي ان تشعر بهذا الفراغ العظيم بعد رحيله. وقد استمرت عزلتها الى ان دخل حياتها صديق آخر، كان على لائحة الانتظار: **جون والتر كروس**. كاتب آخر، ومعجب بها، الى اقصى حدود الاعجاب واصغر منها بثماني عشرة سنة... وها هو يطرق الباب، بكثير من الإخلاص والحياء. فتستجيب لطرقاته، وتنهض من حزنها، بل من جراحها، وتقبل الزواج به، وعلى الطريقة التقليدية. وتصف احدى صديقاتها التحول الجديد فتقول:

«كان شيئا لا يصدق. راحت تطوف على دور الازياء، تختار جهاز العرس، بكل الخبث والدهاء الذي تخفيه الصبايا الجميلات!».

او يصح هذا الوصف على «**اعظم امرأة مشت فوق الارض؟**»..

ولم لا؟...

من يستطيع ان يرصد العواطف البشرية؟..

في السادس من ايار عام ١٨٨٠ تزوجت الصديق القديم **كروس**،

وحظيت، الى جانب الحب، والعاطفة، برضى العائلة التي قاطعتها طوال سني زواجها الاول. وعادت العلاقة الطيبة مع الشقيق الصغير **إيزاك** الذي بقيت جذوة حبه متقدة في صدرها. ولاءمها مناخ **اوروبا**، حين راحت تطوف مع الزوج الجديد، بين المدن والأرياف. وتعيش حياة الهدوء. ولا تبالي بكلام الصديقات، وقد اذهلهن تحولها المفاجئ، وقبولها الزواج برجل اصغر منها...

وكتبت احداهن في يومياتها: «**قد ينسى هو فارق السن بينهما، اما هي، فلا...**».

وبعد انقضاء ثلاثة اشهر هانئة، عاد الزوجان الى لندن ليستأنفا حياتهما العملية. واقبلت **إليوت** على العمل، بشغف ولذة. ولم تحسب حساب مرض كان يتربّص بها، وفاجأها الموت في اثناء الكتابة... فكتب زوجها عبارة معترضة، رفعت، فيما بعد، فوق قبرها:

«**هنا انكسر الحرف، والقلم الذي حمل الفرح والعزاء الى العقول والقلوب، وضع، هنا، علامته الاخيرة. والربيع الذي تحول الى نهر من الكلمات الرائعة، جفّ معينه**».

وحسب الأطباء انه ألم في الحنجرة، وفي الواقع انها كانت نوبة في الكليتين، اصابت القلب، واستلت حياة السيدة الكبيرة، بتاريخ الثاني والعشرين من شهر كانون الاول، عام ١٨٨٠، وبعد انقضاء ثمانية اشهر على زواجها.

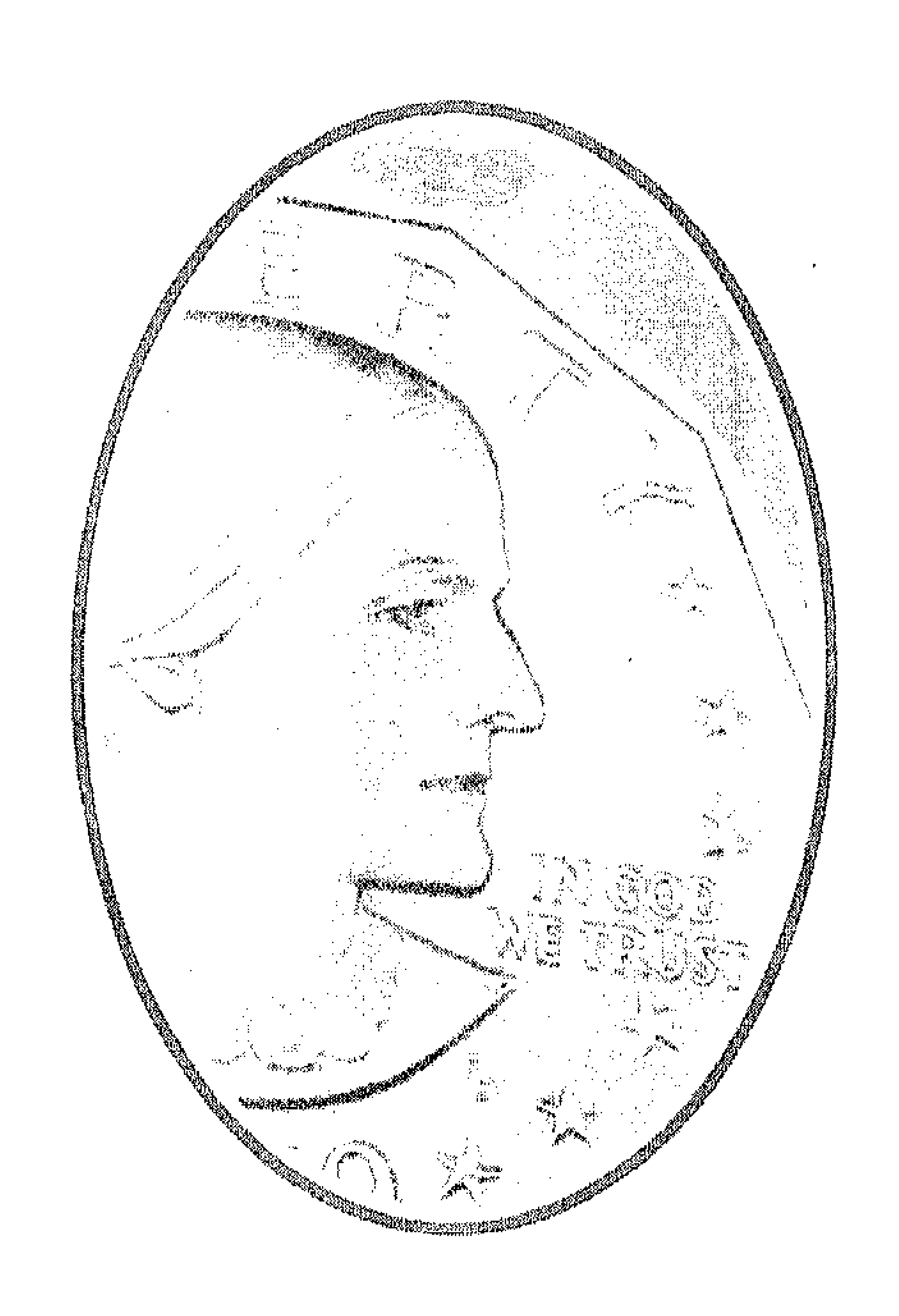
انكسر الحرف... وبقيت شظاياه البلورية، تؤكد مع صاحبته: «**حياة الانسان، يجب ان تتجذر في موطن ما، في بقعة خاصة،**

حيث يمكن للذكريات ان تُسترجع.. مغمسة بدفء اللحظات»...

- جورج إليوت، تاليف ليتيس كوبر.

- حياة جورج إليوت: تاليف غوردون س. هايت.

سوزان ب. أنطوني



«أرفض أن أكون خادمة شرعية لأي رجل».

حين نتحدث عن الحركة النسائية، نشعر بأن هناك خيطاً متيناً يشد المرأة إلى المرأة، مهما بعدت المسافات الجغرافية والزمنية.

وحين نكتب عن أي نشاط نسائي في عصرنا، لا يسعنا إلا أَن نلتفت قليلاً إلى الوراء، بحثاً عن جذور ذلك النشاط، وبحثاً عن الرائدات اللواتي لهن الفضل الأكبر في وضع حجر الزاوية لكل ما عرفه عصرنا الحالي من عطاءات، ان في المجالات العلمية أو الفنية والمهنية.

ونتوقف عند الرائدة الأولى، والتي تدين لها الحركة النسائية العالمية، في كل مكان.

* * *

إنها **سوزان براونيل أنطوني** المولودة في مدينة **أدامس** – ولاية **ماساشوستز** الأميركية في الخامس عشر من شهر شباط، عام ١٨٢٠ . أي حين لم يكن للمرأة مكانة في المجتمع، خارج حدود بيتها.

إنما الجو الذي تربت فيه **سوزان** كان جواً منفتحاً، ساعدها على تخطي مفاهيم زمانها، ووضع قدميها على بوابة المستقبل.

فأبوها، **دانييل أنطوني**، كان مثالها الأول، في الرفض والتمرد على كل عمل مجحف بحق الإِنسان.

وقد حملت أفكاره إلى مدرستها الأولى، وحين تخرّجت (وكان

لها من العمر ثماني عشرة سنة) تنفست مديرة المعهد بارتياح، لخروج الفتاة التي أفقدتها صبرها، بتمردها على القوانين وعدم رضوخها للمفاهيم السائدة.

كان على الطالبات أن يراعين ثلاثة شروط، لتأمين بقائهن في المدرسة: الأخلاق الطيبة، الفضيلة والطاعة.

وقد رضيت **سوزان** بالشرطين الأولين، ورفضت الشرط الثالث، ودعت رفيقاتها إلى الوقوف في صفها. وكانت لها سطوة عليهن بفضل جرأتها وطلاقة لسانها، وحسها الدقيق بالعدالة.

* * *

وما كادت **سوزان** تغادر المدرسة، حتى بدأت صراعها في معركة الحياة، حين اكتشفت أن أمامها الكثير من العمل الإِصلاحي، ابتداء من سن الشرائع وانتهاء بتطبيقها.

وبالطبع، لاحظت أن القوانين السائدة في حينه **(وهي من وضع الرجل)** مجحفة بحق المرأة، تكبل عقلها وإرادتها، وتحد من انطلاقها، كما تقذفها في مجرى الحياة، لتكون تابعة، متخلية عن كل ما تريده.

وبما أن المجال الوحيد المفتوح أمام المرأة، هو التدريس، فقد اختارت **سوزان** أن تعمل في أحد المعاهد، كي تعيل أسرتها.

ولكن، من يقبل بها مدرّسة؟ تلك الصبية النارية العنيدة، تغتنم كل فرصة لتتحدث إلى طالباتها عن واجب تحرير العبيد، وتحسين الأحوال الشخصية، خصوصاً ما كان منها متعلقاً بالنساء. وقد حذرها رفاقها، أكثر من مرة، ودعوها الى أن تبتعد عن النار، حتى لا تحرق أصابعها،

خصوصاً حين بدأت تتدخل في القوانين التي تنظم شؤون البيض والزنوج، في بلدها. وبالطبع لم تتراجع، فخسرت عملها في المعهد المحترم، وانتقلت لتعلم في بيئة **نيويوركية** فقيرة.

هناك بدأت تتلمس الآثار التي يخلّفها الفقر في النفوس لتنعكس، بالتالي، على سلوك الأفراد. ولم تلبث أن حولت المعهد إلى إصلاحية، مما دفع أحد معاونيها إلى الاعتراف بأن «**هذه المرأة لها عقل رجل وقلب امرأة**».

وقد نجح مشروعها، فارتقت من رتبة مدرّسة عادية إلى ناظرة. ثم تابعت تقدمها، لافتة الانتباه في كل خطوة تقوم بها، إذ كانت خطوات مدروسة، وجديدة على كل من حولها. وقد وصفها مدير المعهد بقوله: «**ان هذه المعلمة أذكى «رجل» عرفته كليتنا**». وكان يقصد أن يمتدحها، طبعاً...

* * *

ولكن المعلمة امرأة. بل صبية، قوية الشخصية، حادّة الذكاء. وتقدم بعض الشبان يطلب يدها للزواج، فرفضت، انسجاماً مع موقفها. ويروى عنها قولها: «**أرفض أن أكون خادمة شرعية لأي رجل**»...

والواقع، أنه كان، وراء هذا الرفض، تطلعها الطامح إلى أبعد من الاستكانة في كنف الزوج، لتسوق حياة عادية.

فقد كانت تشعر بدافع يحثها على الوقوف في الواجهة، لتدافع عن ملايين النساء، وتكون صوت أكثريتهن الخرساء. كما نذرت

نفسها لمحاربة القوانين المجحفة بحق المرأة بصورة خاصة، وبحق الإنسان عامة.

* * *

ثم لم تلبث **سوزان**، أن حددت خط نضالها، وهذا ما جعلها تتحرر من ارتباطها المهني، لتجعل همها الأول مساعدة المرأة كي تحقق ذاتها، وتطور إمكاناتها، وتتخطى العراقيل القانونية والاجتماعية التي تعيق تقدمها.

ودفعها ذكاؤها، وبعد نظرها، إلى دراسة القوانين والأحوال الشخصية المختصة بالمرأة، كي تكون لها الحجة الأكيدة لدى تسلمها أية قضية.

وقد هالها الظلم والاجحاف اللاحقان بالمرأة في مجتمعها، كما أعلنت في إحدى محاضراتها، أَنَّ «**المرأة تقوم بدور الجارية من دون أن تعي ذلك**».

وتحركت مع بعض النساء المتحمسات لخلق رأي عام يدعم المطالب، وهكذا ولد أول مؤتمر نسائي في صيف عام ١٨٤٨، بُحثت خلاله المشاكل التي يسببها حرمان المرأة من ممارسة حقها الاجتماعي، والمدني والاقتصادي.

وبالطبع قوبلت هذه الحركة بالسخرية والرسوم الكاريكاتورية في الصحافة. ونُعتت النساء بالجنون.

وكان والد **سوزان** يشد أزرها، لأنه آمن، قبلها، بأنه ما لم تقم حركة اعتراضية على الظلم، فإن المجتمع سائر إلى الانحطاط.

* * *

وانتقلت **سوزان** إلى مرحلة جديدة من نضالها، حين طرحت فكرة إصلاح الرجل، باعتبار أن المجتمع يتألف من نساء ورجال. ثم لأن يد الرجل تطاول القانون، فإذًا، من الضروري أن يبقى واعياً ليفي العدالة حقها.

وكانت هناك حركة تنادي بتحرير العبيد، فانضمت اليها **سوزان**، إذ كانت تعتبر الرق من الآفات التي تعيق التطور الاجتماعي والحضاري، وتشد الإنسان إلى أدنى درجات الانحطاط. وعرفت تلك الحركة باسم «**دعاة العدل**». وقد عقدت مؤتمرها الأول عام ١٨٥٢ وشاركت **سوزان** في اعماله، كما اصطدمت مع أحد قادته البارزين، فخرجت غاضبة، ثم انشقت عن الحركة، وأنشأت حركتها الجديدة وهدفها حفظ كرامة المرأة وإعطاؤها حق التصرف بمالها وممتلكاتها.

هناك تواريخ هامة، أشبه بمحطات انطلاق لنشاط **سوزان**. فابتداء من العام ١٨٥٤، كرّست نفسها ونشاطها كله لحركة مكافحة الرق، والمطالبة بحقوق المرأة. وقد أصبحت وكيلة جمعية تحرير العبيد من العام ١٨٥٦ حتى العام ١٨٦١ .

وأنشأت مع **أليزابيت كادي ستانتون** مجلة أسبوعية (١٨٦٠) وهدفها المطالبة بحق الانتخاب للمرأة أسوة بالذكور من الزنوج. وقامت بنفسها بجس النبض في أول فرصة انتخابية، فتصدت لها الشرطة واعتقلتها، وحوكمت، وغرمت بقيمة مالية رفضت أن تدفعها.

بعد العام ١٨٦٩ بدأت مرحلة الخطابة ونشر الأفكار في طول البلاد وعرضها. ثم نشرت، مع **السيدة ستانتون وماتيلدا غيج**، تاريخ النهضة النسائية، في أربعة أجزاء.

عام ١٨٨٨ أسست «**المجلس النسائي الدولي**»، وفي العام ١٩٠٤ أسست «**الاتحاد النسائي العالمي**» وباتت رمز الانطلاقة النسائية في العالم أجمع...

* * *

وكانت **لسوزان** موهبة خاصة في التنظيم، ومقدرة على المواظبة تثير الإِعجاب، فهي تعمل الساعات الطوال، ولا تشكو التعب. ووظفت طاقاتها وإمكاناتها في خدمة قضايا آمنت بها ونجحت، مع أنها لم تكن خطيبة بارزة، ولا كاتبة مميزة، لكنها منسقة من طراز فريد.

ومن بعض تنظيمها الجديد أنها شكلت لجنة ثلاثية مع رفيقتيها **أليزابيت ستانتون** و **ارنستين رور**.

وقد عرفت باسم «**أول حكومة نسائية في التاريخ**» ودور **سوزان** فيها كان وضع التخطيط للمعارك المعنوية التي تنوي الحكومة خوضها، بينما كانت **أليزابيت** الشاعرة والأديبة التي تؤثر على الناس من خلال كلماتها. ولقبت **أرنستين** بـ «**ملكة الرصيف**»، نظراً لمقدرتها الخطابية.

ولم تسلم اللجنة من صحافة تلك الأيام، إذ حاولت الصحف تدمير **الحركة** عن طريق الهزء والسخرية والرسوم الكاريكاتورية...

وكان هذا يزيد عدد النساء المؤيدات. فلجأت الصحافة إلى التشهير بكل سيدة تنضم إلى **الحركة**.

وحين نقرأ المطالب التي تقدمت بها السيدات في حينه، يأخذنا العجب. لكنها، في الواقع، مطالب نابعة من صميم الحاجة، والممارسات اليومية.

وكانت للسيدات، خطوة جريئة حين تقدمن بمشروع لتنظيم العائلة، إذا كان الأب مدمناً حتى لا يتسبب في ولادة أطفال مشوهين. وهذه نظرة بعيدة وشجاعة.

ومن بين المطالب الباقية: حق المرأة في أن تتقاضى راتب زوجها إذ كان القانون يعطي الزوج حق قبض راتب زوجته، كما له وحده حق الوصاية على الأولاد، إذا كانوا قاصرين.

وتلت ذلك خطوة جديدة مهدت لدخول المرأة إلى الجامعات إذ كانت، حتى ذلك التاريخ، محرومة من حقها في التعليم العالي، وبقي هذا الحظر ساري المفعول حتى عام ١٨٦٥ .

بعد ذلك، انتقلت الرائدة النسائية إلى المطالبة بوحدة التعليم.

وبينما كانت **سوزان** ورفيقاتها يناضلن على الجانب الآخر من الكرة الأرضية، كانت لهنّ رفيقات متحمسات في **أوروبا**، وخصوصاً في **انكلترا وألمانيا**.

وقامت **السيدة السكوتلندية** «**رايت**» بزيارة **الولايات المتحدة** وأذهلت الناس بمحاضراتها حول حقوق المرأة وعلم اللاهوت.

وجدير بنا، هنا، أن نشير إلى أن الحركة لم تكن موجهة ضد الرجل، بل ضد التشريع الخاطئ، والدليل على ذلك أن بعض كبار

السياسيين باتوا من مؤيدي **سوزان** وفي مقدمهم **الرئيس إبراهام لنكولن** بطل تحرير العبيد في **أميركا**.

* * *

هذا خط حياة **سوزان أنطوني**: عمل، نضال، واقتحام دائم للمعابر الصعبة.

وما ان بلغت العقد السابع من عمرها حتى أصيبت بمرض أوهن جسدها، لكن روحها ظلت على تمردها. وكانت تزداد اندفاعاً مع مرور كل يوم...

وحين سافرت للاشتراك في مؤتمر نسائي عقد في **ألمانيا**، عام ١٩٠٤، كانت قد بلغت الرابعة والثمانين من عمرها، وظلت تعمل بنشاط تغبطها عليه الشابات.

أما شعارها في هذه المرحلة فكان: «**إذا قدر للمطرقة أن تهبط عليّ، فلتهبط وأنا واقفة**».

وإذا كان نضالها قد أعطى ثماره، فيما بعد، فإن حياتها الشخصية لم تتاثر بالمجد، وظلت تعيش في حالة من البؤس والضيق المالي، إذ إن النشاط، الذي اختارته، لا علاقة له بالمال.

لكن مناضلة من وزنها لا تنحني أمام الصعاب، وكانت تقول لرفيقاتها، وتعيد: «**كل ما أطلبه هو أن يستمر عملكن من أجل تحقيق العدالة التي نطلبها لوطننا، وسائر بلدان العالم**».

وقد أبصرت بعض ثمار نضالها، تتحقق في حياتها، لكن الثمرة الكبرى فاتتها. وكان على المرأة في بلادها أن تنتظر حتى العام

١٩٢٠ لتمنح حقها للمشاركة في الانتخابات ثم بدأت الشرارة تنتقل من بلد إلى بلد...

المرأة العصرية، التي تجد الأبواب مفتوحة أمامها، والسبل ممهدة في شتى الاتجاهات، لا يخطر لها أن خلف هذه النعمة امرأة، بل مجموعة نساء، قدمن الكثير من التضحيات، لأجل راحتها...

وكانت **سوزان** بتاريخ ١٣ آذار من العام ١٩٠٦ في **واشنطن**، تحتفل بميلادها الرابع والثمانين، حين قررت المطرقة أن تهبط عليها. وكانت واقفة...

- سيرة حياة.
- مجموعة مقالات من المركز الثقافي الاميركي.
- نساء من التاريخ - منشورات الجمهورية العربية السورية.

فلورانس نايتنغيل



«أرجو ألّا تكلّماني بعد اليوم في موضوع الزواج،
فقد قرّرت أن أكرّس حياتي للتمريض».

حيثما تمتد يد الرحمة، لتؤاسي المرضى، وتخفف من آلامهم وتذر الانتعاش والأمل في عيونهم، وتغرس الطمأنينة في نفوسهم...

حيثما يضيء وجه إنساني نَيِّر ظلمة الغرف المقفلة على الآلام البشرية، وينتزع من عالمها الخوف والقلق...

وحيثما تتجلّى التضحية خدمة ومحبة وعطاء إلى أبعد ما يمكن أن تسكبه النفوس البشرية:

هناك **عالمها**...

وفيه يشع نور المصباح الذي رافقها في **حياتها**، وبات رمزاً للشعلة التي أنارتها في الدروب المظلمة.

* * *

فلورانس نايتنغيل (١٨٢٠ - ١٩١٠). الرائدة الأولى في حقل التمريض. والإِنسانة التي تغلبت باكراً على نفسها، وتخلت عن حياة الترف والرفاهية، لتخرج إلى حيث تنطلق صرخات المعذبين في الأرض.

ولدت في **فلورنسا - إيطاليا**. والدها «**وليم شور نايتنغيل**» من طبقة الأشراف البريطانيين، وكان مع زوجته في **إيطاليا** حين أطلت الطفلة الجميلة، واختار لها اسم المدينة العريقة «**فلورانس**».

وكان من المنتظر أن تنمو الفتاة، مثل أية صبية، من بنات طبقتها:

تختار، من العلوم والفنون، ما يساعدها في بناء عائلة نبيلة وراقية، بينما هي تقوم بإدارة المنزل الفخم، والخدم عديدون في شرفتها الارستوقراطية... وكان هذا حلم العائلة، للابنة الذكية الجميلة. ففي قصر أبيها الريفي، بدأت تدرس الأدب والموسيقى واللغات، الخطوة الأولى في سبيل إعدادها لتصبح سيدة مجتمع.

وكانت **فلورانس** أجمل أولاد العائلة، وفخر والديها بخصال تتمتع بها، من ذكاء ونضج وتيقظ.

* * *

ولما أصبحت في العشرين من عمرها، قامت برحلة إلى **أوروبا**، لتطلع على حضارة عصرها، التي كانت تتجلى في النشاط المسرحي والحياة الاجتماعية الباهرة...

لكن الصبية، اغتنمت هذه الفرصة وقامت بزيارة المستشفيات في كل بلد زارته. وحين عادت إلى وطنها ظلّت تشغلها فكرة واحدة: كيف السبيل إلى بناء مستشفيات صحية، يدخلها نور الشمس والهواء النقي؟...

ولكن هذا لم يتوافق مع رغبة أهلها، خصوصاً أن الخطاب، من الاشراف، بدأوا يتقدمون لخطبتها، وقد رفضت فكرة الزواج، معلنة سخطها على الفراغ الاجتماعي الذي بدأت تعيه باكراً، كما أبدت رغبتها في أن تخرج إلى المجتمع، لتعمل في حقل الخدمات، لا كسيدة من سيدات الارستقراطية المترفات.

وكان لا بد لها من التزود ببعض المعلومات عن المهنة التي جعلتها نصب عينيها، فباشرت دراسة التمريض بين سخط أهلها، وغضب

مجتمعها، إذ كان التمريض يعتبر مهنة قذرة، لا تمارسها الفتاة المحترمة، خصوصاً إذا كانت من طبقة النبلاء. وكان من المألوف أن تقبل على التمريض الراهبات اللواتي يكرسن حياتهن لخدمة الغير.

فأية فضيحة أثارت خطوة **فلورانس** في محيطها؟... ثم هناك الشاب النبيل الذي أحبته، وهو أحبها، ويلح في أن تقبله زوجاً... فماذا تفعل؟

* * *

كانت هذه فترة صراع حقيقية: الواجب أم العاطفة؟ وكلاهما مقدر ومهم في نفس الصبية.

ولم يطل الوقت **بفلورانس**، قبل أن تعلن أن نداء الواجب تغلب على نداء القلب. وجلست إلى والديها، بعدما صرفت الحبيب خائباً، وقالت:

- أرجو ألا تحدثاني بعد اليوم بموضوع الزواج. لقد قررت أن أكرّس حياتي للتمريض.

وكان الجواب الذي تلقته:

- أنت مجنونة!

فابتسمت وقالت:

- أشكر اللّه على نعمة الجنون هذه.

* * *

كانت الفتاة تعلم أن معارضة أهلها، ليست سوى بدء، وأمامها عقبات كثيرة في الطريق، فهي تقوم بخطوة رائدة في مجتمع متشدد

في أحكامه، ومتعصب لتقاليده. ولم يكن سهلاً عليها أن تحول المهنة، من موقعها المألوف، وتجعلها عملاً إنسانياً شريفاً. وإذا نجحت هي، من أين تجمع الممرضات؟

تلك كانت اسئلة في سبيلها، تخطتها لتقوم بالخطوة الأهم، أي العمل. بدأت تعمل في التمريض، وتوظف المعلومات القليلة التي تلقتها، في ألمانيا مع ما طُبعتْ عليه من رهافة حس، وتكريس للخدمة العامة.

وقد بدأت موهبتها الخارقة تتجلى وتدفق حنانها، وإنسانيتها، فشعر كل من يعمل معها، بأن نسمة جديدة، من مكان أسمى من الواقع، تهب عليهم.

* * *

عام ١٨٤٩ قامت بزيارة **مصر**، ومن جديد ارتعش الأمل في نفوس المحيطين بها، خصوصاً والديها، إذ قدرا أن هذه الرحلة قد تشفيها من «**هوسها**».

لكنها لم تضع وقتها خلال الرحلة، بل كانت تزور المصحات، وتتعرف على أحوال العمل فيها. ومن **مصر** انتقلت إلى **باريس**، حيث قضت سنتين تدربت خلالهما، على أيدي راهبات المحبة، في أصول العمل التمريضي وإدارة المستشفيات.

وعادت الى **لندن** عام ١٨٥٣ وكان أول عمل قامت به تأسيس مستشفى للنساء العاجزات وأتقنت إدارته، والعناية بمن فيه، حتى أصبح مثلاً في حسن الادارة والنظافة.

* * *

وفي العام التالي، أي عام ١٨٥٤، وقعت حرب «**القرم**»؛ وبدأت ترد إلى **انكلترا** أخبار عن سوء الحال في المستشفيات العسكرية، وخلوها من الأدوية والحاجات الأساسية لإنقاذ حياة الجرحى.

وثار الرأي العام، ونجحت الصحافة في تكوين هذا الرأي الضاغط، واغتنمت **فلورانس** الفرصة، فباشرت اعداد نفسها، مع فرقة من ثمان وثلاثين ممرضة، للتطوع في خدمة ضحايا الحرب.

وقد بعثت رسالة إلى وزير الحربية آنذاك، «**السير سيدني هاربرت**»، أعلمته فيها بأنها أسست فرقة تمريض والجميع على أتم الاستعداد للسفر ومباشرة العمل، وذلك على نفقتها الشخصية. وقد وافقت وزارة الحربية، إذ كانت الحاجة ماسة إلى مثل هذه البادرة.

* * *

أبحرت **فلورانس** وفريقها إلى «**الأناضول**» في ٢١ تشرين الأول عام ١٨٥٤ . ووصلت إلى مستشفى «**سكوتاري**» مرهقة، بسبب الرحلة المضنية وتمرد الممرضات والأعصار البحري. لكن العمل بدل الأجواء، وانهمك الجميع في إنقاذ حياة الجرحى والتخفيف من آلامهم. وكانت **فلورانس** القدوة الصالحة، تعمل بلا توقف، وتعمل بمحبة ولطف؛ وتبدلت أجواء المستشفيات الميدانية، وصار الجنود الجرحى، يتطلعون إليها مثلما يتطلعون إلى نعمة هبطت عليهم من السماء وأطلق عليها بعضهم لقب «**قديسة**».

وكانت الصبية الجميلة أشبه بقديسة حقاً: فهي لا تقصر عملها على التمريض، بل تعمل في إعداد طعام المرضى، وتنظف الأرض، وتجثو على ركبتيها أمام مريض يطلب الاسعاف... وتجلس في الليل

أمام المصباح الضئيل النور، تكتب التقارير عن الأوضاع، وترسلها إلى بلادها وتحث الرأي العام، عبر الصحافة، ليساهم في إطلاق دعوتها الإنسانية.

* * *

وكان من تأثير عملها وديناميكيتها، أن ارتفعت معنويات الجنود، وتحسنت أحوالهم الصحية، وانخفضت نسبة الوفيات من ٤٠ في المائة إلى ٣ في المائة، وذلك بعد انقضاء ستة أشهر على وصولها.

وبالطبع، لم تكن رحلة استجمام، ولا كان سبيلها ممهداً كما ترغب، إذ قامت بينها وبين المسؤولين عدة مشاحنات، وكانوا يرفضون الكثير من آرائها الجديدة. ولم يكن هذا موقف الجنود، الذين أعادت إليهم الحياة والأمل، وكانت تعتبرهم هدفاً لخدماتها، فهي مكرسة لكل ما يساعدهم على الخروج من وضعهم البائس. وكم كتبت اليهم من رسائل، وانعشت في صدورهم الرجاء، بإعادة بناء الجسر بينهم وبين العالم الذي خلفوه بعيداً عن موقعهم. كذلك كانت تنفق من مالها الخاص، لتشتري للجنود طعاماً مغذياً.

وقد استاء منها السفير البريطاني آنذاك في «**استانبول**» وكان اسمه «**ستارتفورد دو ردكليف**». وقد عبر عن استيائه بقوله:

- ليت هذه المرأة تنفق مالها على عمل لائق، كبناء كنيسة في «استانبول» مثلاً.

وسمعه أحد الجنود، وكانت **فلورانس** قد أشرفت على علاجه. فأجابه عنها بقوله:

– إن هذا المستشفى، يا حضرة السفير، هو كنيستنا؛ وإن الآنسة «نايتنغيل» هي الرسول الهادي والملاك الرحيم.

* * *

وكان من عادة **فلورانس** أن تطوف على المرضى، تتفقدهم في الليل، حاملة بيدها مصباحاً صغيراً. وهذا ما جعل بعض الجنود يطلقون عليها لقب «**السيدة ذات المصباح**».

وبعدما اطمأنت إلى تنظيم المستشفى الرئيس، انتقلت إلى المستشفيات الميدانية، لتشرف على تحسين أوضاعها. وكانت الرحلات مضنية، في طرق وعرة وفي ظروف طبيعية شاقة، فكان عليها أن تسير في العواصف، والثلوج لتصل إلى حيث تقوم تلك المستشفيات...

وقد أصيبت، خلال إحدى زياراتها، بالحمى، ورفضت أن تعود إلى **انكلترا**، وفضلت البقاء في المستشفى، حيث كانت تتلقى العلاج، من دون أن تتوقف عن العمل.

* * *

وبما أن لكل حرب نهاية، فقد جاء يوم انتهت فيه حرب «**القرم**». ولم تَبْقَ هناك حاجة الى بقاء **فلورانس** وفريقها التمريضي في «**الأناضول**». فخصصت الحكومة البريطانية بارجة حربية، لتنقلها مع أفراد فريقها، إلى بلادها، وقد رفضت العرض بإصرار وقالت:

– لا أريد جماعة تتملقني. بل أريد أناساً يفهمونني.

وبرغم كل سوء تفاهم، فقد استقبلت، لدى عودتها، استقبال

الفاتحين، إذْ كانت الصحف تتابع أخبارها، وتنشرها إلى جانب أخبار الحرب.

وهكذا، ساعدتها العودة على بدء عمل جديد، وبنفس قوي، من أجل تحسين الأوضاع في مستشفيات بلادها.

وشعرت بالحاجة القصوى إلى معهد لتدريب الممرضات فقامت هي بمهمة تأسيس «**دار نايتنغيل**» للتمريض. ولم تلبث أن أصبحت مستشارة دولية في حقل التمريض، وكان المسؤولون، يطلبون رأيها، من **الهند** إلى **أوروبا**.

* * *

وفي يوم، تلقت **فلورانس** دعوة من أمبراطور **ألمانيا** لتقوم بزيارة بلاده، ولم يترك المناسبة تمر من دون أن يقلدها وسام الاستحقاق، وذلك في حفلة تكريم كبرى، اعتبرت تكريماً لمهنة التمريض.

أما بلادها فلم تمنحها وسام الاستحقاق، حتى العام ١٩٠٧، وكانت قد بلغت السابعة والثمانين من عمرها.

* * *

ولم تكن سن الشيخوخة عند هذه المرأة الخارقة، فترة الاستراحة والتقاعد. فبرغم إصابتها بالشلل الجسدي، ظل فكرها متوقداً نيراً، وقد ألفت في شيخوختها ثلاثة مجلدات في مواضيع اجتماعية ودينية. كذلك ساهمت في دراسة وتنفيذ مشاريع متعددة، وكلها من أجل خدمة الإِنسانية، لا في بلادها وحسب، بل حيثما يوجد الانسان...

ومن المشاريع التي ساهمت في تحقيقها:

– مكافحة البغاء في أميركا.

– مشروع اصلاح مستشفى «ليفربول».

– أسست مع «هنري دونان» السويسري، «مؤسسة الصليب الأحمر الدولي».

وكان لنشر مذكراتها، عام ١٨٥٨، صدى تجاوز كل حد. فقد طلبت، في تلك المذكرات، أن تنتقل إدارة المستشفيات، ورعايتها، من أيدي الرجال إلى أيدي النساء، وذلك بناء على خبرتها وتجاربها العملية...

* * *

واليوم، وبعد انقضاء تسعة عقود على رحيل هذه الإنسانة الكبيرة، تبقى شعلتها متقدة، تنتقل من جيل إلى جيل. وقد تم لها ما أرادته، ففي معظم بلدان العالم، يعهد بمهنة التمريض وإدارة المستشفيات إلى النساء... والنساء المتفوقات في تكريس الذات، في التضحية ونذر النفس للخدمة الإِنسانية، وأية إنسانية: تلك المعذبة، البائسة، المتسربلة بثوب الألم، الغارقة في هوة اليأس.

السيدة **ذات المصباح** رحلت حقاً، مثلما هو مقدر، لكل من عليها أن يرحل... لكن نور مصباحها، بَاقٍ، ما بقيت هناك آهة ألم، واستجابة رحومة لتخفيفها.

- فلورانس نايتنغيل - سيسيل وودهام.
- الموسوعة البريطانية.

أليزابيت بلاكويل



«أنَا طالبة في هذه الكلية، ومن حقي حضور جميع الدروس النظرية والتطبيقية».

تكاذ حكايات الرائدات أن تكون متشابهة، ثم يفصلها، الواحدة عن الأخرى، ذلك الخيط الدقيق، الذي يميز الفردية ويبرز العبقرية، ويرسم ملامح الشخصية، بكل وجوهها وحقائقها.

بينما كنت أطالع سيرة هذه الرائدة من القرن الماضي، رحت أستعيد، في ذاكرتي، وجوه العشرات من النساء الناجحات، اللواتي عرفتهن، وكتبت سيرهن، ورسمت وجوههن، بأدق تفاصيلها. وكنت أسائل نفسي:

– **هل تتكرر القصة الواحدة من امرأة إلى أخرى؟**

– **نعم**، سمعتني أجيب، **القصة ربما تعاد، إنما مع أبطال جدد... ومع شخصيات تطل دائماً من خلف نوافذ الزمن، ولا تحد بزمان أو بمكان...**

* * *

واحدة من الرائدات الناجحات **أليزابيت بلاكويل**، أول امرأة تدرس الطب في **أميركا**... وهي ليست أميركية، بل بريطانية، ولدت في ٣ شباط من العام ١٨٢١ في بلدة **كاونتر سليب** بمقاطعة **بريستول**، وكل ما نعرفه عن عائلتها، أن والدها كان صاحب مصنع لتنقية السكر، ثم لسبب ما، انتقل مع العائلة إلى الولايات المتحدة الأميركية، واستقر في **نيويورك**. كانت **أليزابيت** في الحادية عشرة من عمرها، وبدأت ميولها إلى العلم تظهر منذ الطفولة. وقد شجعها أبوها

لتدرس. ومع تحصيلها الابتدائي والمتوسط درست اللغتين: **الفرنسية والألمانية**. وهذا ما ساعدها على ان تقرأ في ثلاث لغات. وماذا كانت تقرأ؟

كتب العلم، والطب... أجل، **الصبية أليزابيت** كانت مولعة بهذه الكتب، وتقرأها مثلما تقرأ المراهقات القصص الخيالية أو الغرامية.

وحتى في أثناء لعبها مع لداتها، كانت تختار لعبة المستشفى، وتكون هي دائماً الطبيبة، والرفيقات ممرضات. أما المرضى، فتختارهم من الدمى التي تخص الفريق اللاعب...

* * *

باكراً جداً، بدأت تظهر ميولها الطبية، وحبها للشفاء... وكانت عينها على محيطها، باحثة عن الضعفاء أو المرضى بين الأقربين، كي تذهب إليهم وتشفيهم، كما راحت تقدم خدماتها الشفائية إلى فقراء الحي... كل ذلك، ومعينها الكتب التي تقرأها، وبعض الدروس الخاصة في العلوم، والتي كانت تتلقاها في البيت.

وعندما بلغت **أليزابيت** الثامنة عشرة من عمرها، بدأت تدرس التاريخ واللغات، حتى إذا ما أنهت عملها، عادت إلى غرفتها لتُغرق نفسها في دراسة الطب، بمفردها.

* * *

وفي يوم، ساقتها المصادفة إلى منزل مريضة فقيرة من نساء الحي، وبقيت بقربها، منصرفة إلى خدمتها حتى تعافت. تلك المريضة، أيقظت الوعي الأول في رأس الصبية:

– «يداك اللطيفتان، كانتا واسطة شفائي. لماذا لا تصبحين طبيبة؟».

لفظت المرأة كلماتها بعفوية وصدق، وعلقت أصداء الكلمات في أذنيها:

نعم! لماذا... لماذا لا تدرس الطب؟...

ثم تساءلت، في السر، بينها وبين نفسها:

– هل صحيح، ما يعتقده الآخرون، أنه لا يصلح للطب إلّا الرجال؟

* * *

النقلة التالية حملتها مع السؤال إلى طبيب العائلة. كانت تحبه وتثق به. كما كانت معجبة بمقدرته على الشفاء... لذا لم تتردد في طرح السؤال الذي ترجّع في أعماقها منذ تفتح وعيها:

– هل تنصحني بدراسة الطب؟

فوجئ الطبيب بالسؤال، مثلما فوجئت العائلة، وردد الجميع بصوت واحد:

– المرأة لا تصلح للطب... لم يسبق أن درست فتاة الطب، من قبل. والأفضل، ألا تخوضي هذا الميدان الصعب، كي لا تفشلي.

وكانت هي تسمع وتسائل نفسها:

– ولماذا لا أكون أنا الطبيبة الأولى؟... الرائدة الأولى؟...

كانت شديدة الثقة بنفسها وبمقدرتها وميولها، قوية الإيمان بمسعاها وطموحها، وقادرة على السير عكس التيار. وهذا ليس بالأمر السهل،

خصوصاً في زمان الخضوع الكلي، وذوبان الشخصية النسائية، وتصلب التقاليد، وتضييقها. وإذا كان محيطها لا يسمع صوتها، ولا يفهم مقدار ما تعاني، فلماذا لا تحمل معاناتها إلى من يفهمها ويقدر طموحها؟...

لماذا لا تذهب إلى الذين تخصصوا في فن الشفاء؟

* * *

وهكذا قصدت عميد كلية الطب في **نيويورك** لتجرب حظها، وذلك عام ١٨٤٥ . وفي تلك الآونة، كانت صبية حسناء الملامح، لطيفة الخلق، وهذا أبرز ما كان يراه فيها الآخرون... ولم يشذ العميد عنهم. استقبلها مرحباً، ثم فوجئ بها تطلب الالتحاق بكلية الطب، وذلك بعدما حدثته عن ولعها ومطالعاتها ودراستها الخاصة... أصغى إليها العميد، حتى انتهت، ثم تأملها وفي نظراته لون من الشفقة وقال:

- يا بنية! نصيحتي لك هي أن تهبطي من عالم الخيال والأحلام، وتبحثي عن زوج يليق بك.

* * *

خيّبها!...

لكنها لم تيأس.

انتقلت، في الخطوة التالية إلى ولاية **فيلادلفيا** وذلك بعدما سمعت عن كلية الطب فيها. وطلبت إلحاقها بالمعهد. وهنا، لم يكن حظها أفضل من السابق. فبعدما سمع العميد طلبها، راح يؤنبها على تجرؤها وإضاعتها وقته الثمين. وكان فظاً إلى درجة بعيدة، كي يثنيها نهائياً عن عزمها، وقال لها بلهجة لا تخلو من سخرية:

– الأسهل لك أن تقودي ثورة من أن تدرسي الطب.

* * *

الجواب أحزنها. لكنه أصاب نقطة التحدي في نفسها، فنهضت، بكثير من التصميم، لتواجه وتتحدى. وتتابع السعي. وعنادها هذا كان نابعاً من ثقتها بنفسها، وإيمانها بأن المرأة هي طبيبة بالغريزة، فهي التي تحضن الحياة وتحميها، وتربي الأطفال وتحنو على المريض، وتساعد الضعيف. وهي التي لها الصبر على سماع شكاوى المتألمين، والمقدرة على مؤاساتهم. وإذا كانت لها تلك الصفات بالسليقة، فكيف بها إذا درست علم الطبابة؟

ثم كان للصبية موقف عادل ومحق من الرافضين، لماذا يرفضونها؟... وهل يكفي أن يفعلوا ذلك لمجرد كونها الأنثى؟ لماذا لا يجربونها، ومن ثم يصدرون أحكامهم عليها؟

لكن قطرة الماء العنيدة، تظل متابعة طريقها نحو المصب... نحو الهدف. وأخيراً بلغت **أليزابيت** غايتها الأولى، حين قبل طلبها، والتحقت بمعهد **جنيفا** للطب، في ولاية **نيويورك**.

انكبت على الدراسة بنهم، فكانت تلتهم العلم التهاماً، لتعوض من مجاعة عاشتها سنين، وحرمان أقلقها طويلاً... ولم يكن محيطها الجامعي يرحب بها، بل لقيت المحاربة من كل جهة، من قبل الأساتذة كما من الطلاب. وظلت لا تجرؤ على طرح سؤال في الصف، خشية أن يتحول طرحها إلى سخرية. لكنها استخدمت كل لحظة من لحظات وجودها في الكلية كي تستفيد... لذا أدارت أذناً صماء

للأقوال الساخرة. ولم يعد الكلام يؤثر فيها، فهي سائرة في طريق الفعل وتحقيق الغاية.

وفي نهاية العام الأول، نجحت بتفوق. لكن ذلك لم يشفع بها، أو يخفف من حدة السخرية المشهورة في وجهها كيفما توجهت.

وفي يوم فوجئت بأستاذ الجراحة يطلب منها أن تغادر القاعة، كي لا تشهد عرضه لعملية الزائدة أمام الطلاب. عندها، شعرت بأن الوضع لم يعد يحتمل الصمت. فوقفت لتقول للأستاذ بهدوء: «**إني طالبة في هذه الكلية. وقد نجحت، في عامي الدراسي الأول، ودفعت رسومي كاملة. إذاً فمن حقي أن أحضر جميع الدروس النظرية والتطبيقية**»... ولم يتخذ الأستاذ قرار القبول بمفرده، بل أشرك فيه الطلاب. وقد وافقوه وهم يبيتون لها أسوأ النوايا لاعتقادهم أنه سيغمى عليها حالما يمسك الجراح المبضع، ليبدأ بالعملية. لكن الذي جرى هو أنها صمدت، بينما أغمي على بعض الرفاق الذكور.

* * *

أنهت **أليزابيت** عامها الثالث. محتلة مرتبة التفوق. وكان عليها أن تنتقل مع الطلاب، ليقضوا فترة الصيف في التمارين التطبيقية، في المستشفيات. لكن إدارة المستشفى رفضت قبولها. وعلل المدير رفضه بقوله:

- **قد تنسين، أحياناً، أنك فتاة... أما نحن، فلا يمكننا أن ننسى.**

لكنها، في هذه المرحلة، كانت قد اكتسبت الثقة، والقدرة على الاعتراض، والقناعة بأن أنوثتها التي لم تعقها عن التفوق في الدروس،

لا يجوز أن تعيقها الآن، في مرحلة التطبيق، وهكذا أرغمت المدير على التراجع عن موقفه.

* * *

خطوة جديدة في العمل. وعودة أخرى إلى دائرة الصراع مع الزملاء وسوء معاملتهم، ومع المرضى وعدم ثقتهم بكفاءتها...

وكان هناك طبيب يراقب ما يجري، ويحصي عليها حركاتها. وقد اعجبه ثباتها ومقدرتها على المقاومة، كما اعجب بإخلاصها في عملها، ومقدرتها المهنية. لذا قرر أن يخرج على الخط الذي اتبعه زملاؤه معها، فيأخذ بيدها، ويعطيها فرصة العمل، كي تبرهن عن كفاءتها... وكان موقفه منعطفاً في مسيرة عمل الطبيبة، إذ بفضله، اقتنع الآخرون بأن المرأة، مثلهم، قادرة على امتهان الطب، بل والتفوق فيه.

في نهاية السنة الرابعة، أي عام ١٨٤٩ تتخرجت **أليزابيت** من كلية الطب، وكانت الفتاة الأولى التي تحصل على هذا الشرف. وقد نالت شهادتها بتفوق. وبرغم ذلك كله، لم تشعر باهتمام الأوساط الطبية... أما الصحف المحلية، فقد علقت على مناسبة التخرج بقولها: **«يؤسفنا أن نرى شابة تشذ عن القاعدة، وتتخلى عن التقاليد، وتخرج على ناموس الطبيعة، فتخوض مجالات علمية لا تصلح إلا للرجال»**.

لكن **الطبيبة**، نالت من أهلها ومحيطها، كل تقدير. وهي لم تكتف بلقب **«دكتورة»** بل أرادت أن تتخصص بأمراض الأطفال والنساء... وقرارها وضع الجميع أمام تحد جديد... وقد «ركبت

رأسها» وسافرت إلى **انكلترة** لهذه الغاية. لكن الجامعة، هناك، لم تكن أفضل من جامعات **أميركا**، فلم يسمح لها بالتخصص واكتفت بأن تتمرن على يد الطبيب المختص، في مستشفى «**القديس بارثولوميو**». ثم انتقلت إلى **فرنسا**، على أمل أن تكون الظروف فيها أفضل... وهنا أيضاً قوبلت بالاستنكار، بل قام من اتهمها بالجنون.

* * *

وهكذا عادت إلى **نيويورك**، وقد زادتها التجارب تصميماً على المضي في ممارسة الطب. وكان عليها أن تجد عيادة. وقبل المالك بعد تردد بأن يؤجرها مقراً للعيادة، مشترطاً عليها ألا ترفع لوحة باسمها. ورضخت لشروطه. ثم لم تلبث أن علقت اللوحة.

لكن المرضى لم يقبلوا على عيادتها.

وأنفقت أياماً، بل أسابيع في الانتظار. وكانت عشرات الأسئلة تدور في رأسها، وتدعوها إلى تأمل وضعها، والظلم الذي لاحقها، فقط لكونها أنثى. وهنا، خطر لها أن تكتب تجربتها، لَعَلَّ القراءة تفتح الأعين، وتوقظ الناس من سباتهم.

وبالفعل، راحت تكتب قصتها مع الطب، ومنذ اليوم الأول من دخولها الجامعة. وروت بإسهاب، كيف ارتفعت في وجهها حراب الصد، وشُنّت عليها الحروب. ونشرت مقالاتها في إحدى الصحف المحلية. فأقبل الناس على قراءتها، وتأثروا بها. بل انقسم الرأي العام، حيالها إلى فريقين: واحد يساندها والآخر يعارضها، وهذا أعطى فرصة للحوار، ودفع قضية المرأة إلى الواجهة، ولم تلبث أن شرعت الأبواب أمام نساء طامحات، ليتبعن خط مسيرتها التصاعدية.

ثم، بدأت النساء يتوافدن على عيادتها. ولم يلبث الرجال أن أخذوا يحملون إليها أطفالهم لتشفيهم. وهكذا تحولت أيامها. وشجعها النجاح على ان تطلب من شخص آخر، في عائلتها، دراسة الطب. وهكذا التحقت أختها الصغرى، بالجامعة.

أما مشروعها التالي، فكان تأسيس كلية الطب للنساء. إذ أحبت أن تجنب بنات جنسها مرارة التجربة التي ذاقتها بنفسها. وبالفعل تم إنشاء الكلية عام ١٨٦٦ ودعت أساتذة من أصدقائها الأطباء، الذين يؤمنون بقدرة المرأة وذكائها، كي يدرّسوا فيها. كما تولت بنفسها الشؤون الإدارية. وجعلتها كلية نموذجية. وحاول الكثيرون، بعدها، أن يسيروا على خطاها. وهكذا بدأت تنشأ كليات وجامعات مختصة للطالبات من دون الطلاب. وكانت كليتها تجتذب طالبات من أوروبا، حيث لا تتوفر لهن الفرصة لدراسة الطب أو العلم بسبب النظرة التقليدية إلى إمكاناتهن.

انتظرت **أليزابيت** مناسبة تخرج أختها طبيبة، فاتفقت معها على إنشاء مستشفى خاص في **نيويورك**، وذلك عام ١٨٥٧، وكان مثالاً في حسن الإِدارة. ونال ثقة الناس، وبات المرضى يقصدونه من كل صوب.

* * *

وفي يوم، وبينما كانت تقوم بزيارة **لبريطانيا**، سمعت أن زملاءها الأطباء في **أميركا** باشروا تأسيس رابطة تجمع شملهم. فعادت بسرعة، كي لا تفوتها فرصة الانضمام إلى تلك الرابطة، وإثبات وجود المرأة فيها. ومرة أخرى، كان عليها أن تصارع، في سبيل

قبولها. وقد انتصر لها فريق من الأطباء، تغلب على سلبية الآخرين، ومكنها من الانتماء إلى الرابطة.

مارست الدكتورة **بلاكويل** الطب مدة ثلاثين عاماً. ثم انسحبت من الحياة العملية عام ١٨٩٠ وعاشت في عزلة تدون مذكراتها، حول دراستها، وعملها، والمصاعب التي جابهت مسيرتها الفريدة. وقد نشرت تلك المذكرات في **لندن**، عام ١٨٩٥ . وكانت الشعلة الهادية لمئات الطالبات في كل أقطار المعمورة.

وفي ٣١ أيار من عام ١٩١٠ توفيت الطبيبة الرائدة، في **هاستينغ**، وأغمضت عينيها، قريرة البال، لأنها حققت، عبر حياتها وعملها، ما لم تسبقها إلى تحقيقه امرأة من قبل.

وتحتفل النساء الأميركيات، كل عام بيوم **اليزابيت بلاكويل**، الرائدة الناجحة. والتي مهدت للمرأة، سبيل الدخول إلى منطقة كانت محرمة عليها من قبل.

* * *

هل تتشابه حكايات الرائدات؟... ربما. إنما تبقى لكل واحدة منهنّ صفاتها، وميزاتها، والطريق الخاص الذي سلكته وحدها وأنارت ظلماته بنور من قلبها وعينيها.

- أرشيف المركز الثقافي الاميركي.
- نساء متفوقات - سلمى الحفار الكزبري.
- الموسوعة البريطانية (ج ٢).

إملي ديكنسون



«الأصدقاء أوطان صغيرة».

تشبه نجمة سقطت من مكان مجهول في الكون، وسارت فوق الأرض بضع خطوات، ومع كل خطوة كتبت كلمات الشعر.

كما تشبه زهرة برية، نبتت في حقل لم يسبق أن امتدت إليه يد بالحراثة أو التمهيد، وأعطت في المكان والزمان، العطر واللون. وهو عطر يصعب على النقاد أن يصنّفوه، كما أن لونها يسبق كل الصفات.

تلك هي «**املي ديكنسون**» التي يعتبرها النقاد، حتى وقتنا الحاضر، أعظم شاعرة باللغة الانكليزية.

ولدت **املي** في العاشر من شهر كانون الثاني، عام ١٨٣٠، في بلدة «**أمهرست**» من ولاية **ماساشوست** الاميركية، وهناك قضت حياتها. ومن تلك الأجواء، غرفت عناصر شعرها، ومن أرض **امهرست**، طبيعتها وأوديتها، استلهمت قصائد لا تشبه شيئاً مما سبقها إليه الشعراء. فقد كتبت هذه الشاعرة بطريقة مميزة، وأسلوب جديد فريد، مما دفع أحد النقاد إلى القول: «**إنها تكتب وكأنما لم يسبقها إلى الكتابة أحد**». وكتبت بلغة خاصة، لم يفهمها المحيطون بها، من نقاد وكتّاب، مما جعلها تنكفئ على نفسها، وتعيش في شرنقة عطائها، و«**تجلس في نور نارها**».

وقبل أن أتابع الكلام عن عطاء هذه الشاعرة الكبيرة، أعود قليلا إلى طفولتها: فقد ولدت في أسرة راقية. امها **أملي نوركوس**، سيدة

مثقفة، شديدة التأنق والمحافظة، وتحب زوجها **إدوار ديكنسون** حباً يقرب من العبادة. فقد كان محامياً نزيهاً، وظف علمه ومعرفته في خدمة شعبه، وانتخب عضواً في مجلس الشيوخ، وكانت شخصيته، على ما يبدو، جذابة، محببة، مما جعل ابنته تتعلق به وتحبه، لا في الحياة العادية وحسب، بل وفي وجدانها الشعري. وقد ظهرت تلك المحبة في فترة لاحقة، حين فقدته، وذكرته في العديد من قصائدها.

والشاعرة ليست وحيدة أبويها، إذ كانت لها أخت تدعى «**لافينيا**»، وهي من النوع العلمي الواقعي. وأخ اسمه «**أوستن**»، يشبه **املي** بطباعه الفنية، ورهافة حسه. وهذه العائلة، تنحدر من أصل انكليزي، لكن الأجداد أقاموا في منطقة **أمهرست** قبل ولادة الشاعرة بتسعة أجيال.

* * *

كان من الطبيعي أن تذهب **املي** إلى المدرسة القريبة، كي تتعلم أسوة بأخويها. وإلى جانب العلوم التقليدية، درست الموسيقى، واتقنت العزف على البيانو. وخرجت من المدرسة التقليدية في السن الرابعة عشرة، وانصرفت إلى دراسة اللغة الالمانية. وهنا نلاحظ حدثاً هاماً طرأ على حياتها - التي كانت تدور في شبه عزلة - فقد سافرت، وحدها، إلى **بوسطن**، في السادسة عشرة من عمرها، ويبدو أن هذه الرحلة، الوحيدة في حياتها، كانت مهمة من ناحية نمو شخصيتها، وانفتاح وعيها. ولما عادت، دخلت ندوة «**ماونت هوليوك**» الخاصة بالطالبات، ثم غادرتها لتتابع علومها في أكاديمية «**أمهرست**». وكانت، في هذه المرحلة المبكرة من حياتها، تكتب الشعر خلسة،

مستلهمة طبيعة بلدتها، وروعة حديقتها، في كل الفصول. وبعض كتاب سيرتها يقولون: «**إن الطبيعة بقيت مدرستها الكبرى، وعالمها الوحيد**»...

إثنان من الشعراء الذين سبقوها، استحوذا على انتباهها، وأثارت أعمالهما اهتمامها، وهما: **أمرسون و املي برونتي**. كانت تجد عند الأول، النزعة الصوفية التي نسجت على نورها قصائد في غاية الحداثة والفرادة، كما أدهشتها **برونتي** بخيالها الخصب، وأصالتها. وبالطبع، لم تكن هي مقلدة لهما، أو لسواهما من الشعراء والكتّاب، بل تجاوزت كل من سبقها في رأي البعض، حتى أن أحد النقاد كتب ذات مرة: «**إذا طلب إليّ أن اسمي أعظم شعراء أميركا، فإني أضع أصبعي على اسمين: بو وديكنسون**»... وناقد آخر يرى أن **املي** كتبت أرقى وأجمل شعر بالانكليزية.

* * *

وقبل أن نتساءل عمّا إذا كانت هناك مبالغة في التقدير، نحاول أن نكمل رسم الخلفيات التي كونت عالم الشاعرة:

لقد كان وسطها الراقي يفسح لها في المجال، كي تنمي مواهبها، من دون حدود أو قيود. وهي فتاة ذكية، رقيقة، وعاطفية وطامحة إلى الكتابة.

بل يخيل إلينا، أن الشعر سعى إليها؛ واستضافها في صومعته، وأغدق عليها من عطائه، وبحبح لها العطاء؛ وذلك في زمن، لم تكن فيه المرأة طامحة إلى أكثر من ثقافة شاملة، تفيد منها أسرتها وتساعدها في تربية أولادها. كذلك لم تبرز في عائلتها موهبة عبقرية، وإن كان

الأهل أناساً محترمين. ولم تتلق الشاعرة علوماً خاصة تضعها على طريق الشعر والأدب. وان تجربتها في تحرير صحيفة الكلية، لا تكفي مستنداً وبرهاناً ووعداً لمستقبل ذي شأن.

* * *

لم تختلف **املي** عن الصبايا في مثل سنها، بل كانت اجتماعية، مرحة، تحب الرياضة والسير في الحقول، والبحث عن الأزهار البرية، التي خبرت مخابئها ومشاتلها. والصبية التي عرفت بالشجاعة الروحية والفكرية، ظلت جبانة فيما يتعلق بالمغامرات، وكانت تفضل عليها الجلوس في صالون والدها الذي يطرقه الغرباء من كل صوب، أو الاستماع إلى المحاضرات والخطب في الندوات الثقافية.

إذاً، لم يكن في حياة الشاعرة، حتى تلك الآونة، ما يشير الى الاتجاه الذي اختارته، وهو الاعتزال في وهج التفكير الروحي.

هناك ثلاثة عوالم دخلتها الشاعرة، وعاشت في كل منها، وتركت بصماتها على شعرها وحياتها.

عالمها الأول هو **الطبيعة**، منها غرفت اللون، والوهج، والرموز المضيئة؛ وطبيعة بلدتها، بل وحديقة دارها التي تحولت إلى مصدر للوحي والالهام، ومعرض للتحولات الفصلية، والتي تتصل عبر أسلاك غير منظورة، بالتحولات التي تطرأ على حياة الإنسان... ومن اعماق تلك الطبيعة غرفت الفلسفة، والنقاء الفكري، والصفاء الروحي. فكأن الغشاء الخارجي، المحيط بها، كان المصفاة التي تعبر من خلالها الأحداث والأفكار. ومثلما نجد في الطبيعة الجمال البكر، كذلك نراه في قصائدها.

العالم الثاني الذي تأثرت به الشاعرة منذ أن فتحت عينيها على الوجود هو عالم **الصداقة**، وقد عرفتها على السجية في الطفولة السعيدة، كما في المراهقة، ثم في مرحلة النضج.

كان أول الأصدقاء **بنجامين نيوتون**، وهو شاب مثقف، يعمل في مكتب والدها. وكانت صلته بها فكرية، فهو أول من شجعها على أن تمضي في كتابة الشعر، حين كانت في الثامنة عشرة من عمرها، تتلمس طريقها نحو إثبات وجودها. لكن هذا الفتى توفي عام ١٨٥٣، فحزنت عليه حزناً شديداً، تظهر ملامحه في قصائدها.

بعده تعرفت الى واعظ يدعى «**شارلز وودسوورث**» ونمت بينهما مودة طيبة. وبالطبع لم يرد موضوع التفكير في الزواج به، إذ كان متزوجاً. لكن صداقته كانت الجسر الذي عبرته باتجاه النضج الشعري والفني. وبينهما رسائل في غاية الأهمية، لكنها أتلفت، وإتلافها أبقى هذه النقلة الهامة للشاعرة في الظل، خصوصاً وأن التراسل بينهما تم بعدما انتقل هذا الصديق إلى **سان فرانسيسكو** مخلفاً في نفسها لوعة الفراق، وفراغاً في الروح والفكر. لكنها لم تلبث أن نفضت حزنها، وخرجت من عزلتها لتكتب رسالة أرفقتها بقصيدة إلى محرر في مجلة «**أتلانتيك**» الشهرية، يدعى **توماس هيغنسون**. وكان يهتم بالأدب الذي تكتبه المرأة، ويبرز الاقلام الشابة. وجاءها جوابه صريحاً بل لا يخلو من قسوة حين قال لها: «**عليك أن تشحني أسلوبك بشحنة من الحياة**».

ولكن ذلك لم يصدمها، بل أرسلت من جديد باقة من القصائد مع سؤال جريء: «**قل لي يا سيدي، هل أنت مشغول إلى درجة لا تستطيع معها أن تخبرني عمّا إذا كان شعري هذا مشحوناً**

بالحياة؟»... في هذا الوقت، لم تكن مبتدئة، ولم يستطع جوابه أن يحط من عزمها. كما أن الناقد لم يقفل الباب في وجهها، بل تركه مفتوحاً على مصراعيه، خصوصاً حين أجاب فيما بعد بأن شعرها لا بأس به، إذا تخلت عن تقنية غير مألوفة لدى الشعراء. وأقر لها بجودة الوزن واللغة.

وهنا، لا بأس من ذكر المقياس الذي اعتمدته في وزن شعرها، فقد نَحَتْ منحى الترانيم الدينية المألوفة لديها. أما اللغة، فكانت غريبة، وكأنما مفرداتها مجموعة أزهار برية، توحد بينها وتضمها القصيدة المقتصدة، من دون أن تطفئ النور الذي تتفرد به كل واحدة من الزهرات.

ومع أن ردود **هيغنسون** لم تكن مشجعة، فقد ظلت الشاعرة تقر له بالفضل عليها حتى آخر أيام حياتها. وصده لم يوقفها عن كتابة الشعر، إنما جعلها تحجم عن نشر ما تكتب. ومن هنا بدأت مسيرتها الشعرية المتوحدة والشخصية.

وفي الواقع، إن هذا الناقد الذي اختارته كي يعطي رأيه في شعرها، ظل طوال الوقت، غير قادر على فهم عطائها الفهم الكلي، وبالتالي تصنيفه. فقد كانت الغرابة في قصائدها، والجدة التي أطلت بها الشاعرة، محيرة إلى حد يجعلها خارج كل ما عُرف، وما هو مألوف لدى النقاد. ولولا شخصيتها القوية، فموقف رجل في هذا المركز، وتكن له من الاحترام قدراً وافراً، كان في استطاعته أن يحطمها أو يخرسها.

* * *

ثمة شخص آخر على لائحة الأصدقاء، بل الأحباء، هو **أوتيس لورد**، وكان محامياً وقاضياً، **واملي** في الأربعين من عمرها، حين التقته وأحبته. وكان يمكن لهذا الحب أن يثمر، وتصبح العلاقة بينهما متكاملة، على الصعيد الإنساني والفكري. لكن هذا أيضاً خرج من حياتها، وبقيت آثار العلاقة العاطفية في قصائد كتبتها في الحب، وبلغت في بعضها حداً اعتبر، في زمانها، أقصى ما تبلغه الجرأة الفنية.

ويذكر من الأصدقاء كذلك، **صموئيل باولز**، رفيق أخيها، وهو صحافي ذكي استطاع أن يدرك الأعماق الفكرية والروحية التي بلغتها الشاعرة؛ وكان معجباً بشعرها أقصى الاعجاب، وقد نشر لها في الصحيفة التي يعمل فيها خمس قصائد أو سبعًا، وهذا كل ما نشر للشاعرة في حياتها. وكانت تقف منها الموقف المشجع ذاته، صديقتها السيدة **هولند**.

وفي الواقع، أن الصداقات التي أحاطت بالشاعرة، لم تقتصر على جنس واحد. بل كانت لها مجموعة صديقات، من أرقى السيدات في محيطها، منهن **سو**، زوجة أخيها، وكانت تحاورها، وتبدي رأيها في قصائدها؛ **واملي** تحترمها وتحبها، وتعتبرها ناقدتها المخلصة. كذلك ضمت حلقتها شاعرة تدعى **هيلين جاكسون**، ومجموعة من أبناء العم أو الخال. وكانت تردد دائماً: «**هؤلاء أصدقائي... إنهم وطني**»...

ولها قول في الصداقة مأثور: «**إن الأصدقاء أوطان صغيرة**».

* * *

حقاً، الصداقة مهمة في حياة الشعراء والناس البسطاء. لكن

الشاعرة، كانت «**تغترب**» بعض الوقت، عن «**أوطانها الصغيرة**» وتدخل في العالم الثالث الذي اختارته، وهو دنيا غير منظورة، تتغلغل حتى أقصى حدودها، وتخرج منها، حاملة الكنوز والجواهر الروحية. وربما، أدركت سر هذا العالم الغريب، والبعيد عن مرمى النظر، في مرحلة النضج، وحين بدأت تشعر بأن الصداقات، مهما تمكنت أواصرها، لا بد من أن تأتي إلى نهاية، آنية، أو دائمة.

كذلك الطبيعة، لها حدود وقيود. بينما يسحرها ذلك البعد الغامض، الذي يملأ قلبها بالشوق الدائم، وكلما ظنت انها بلغت مداه، تكتشف أنها لا تزال في بدء الطريق.

وهكذا، وبكثير من الصراحة في التعبير والاصالة في التفكير، ظلت الشاعرة تنتقل بين هذه العوالم. حتى كان استقرارها، شبه النهائي، في اختيارها الأخير.

* * *

عام ١٨٦٠ يمكن أن يعتبر مرحلة الذروة الفنية التي بلغتها الشاعرة، إذ بدأت تجارب جديدة في اللغة والوزن، وكتبت شعراً لم يسبقها إليه أحد من قبل؛ وبعد سنتين من هذا التاريخ، تجرأت وبعثت قصيدتين فقط إلى **هيغنز** الذي قدر معنى الحداثة في شعرها، إنما نصحها بعدم النشر. وظل مرشدها، وموضع ثقتها، حتى يومها الأخير.

وهنا، ينهض في النفس تساؤل عن تصرف هذا الناقد: فهل كان يخشى عليها من قسوة النقاد، وبالتالي، يخاف أن ينحسر الدفق الشعري وتتوقف عن العطاء؟ أم أنه لم يكن مؤمناً الإِيمان الوثيق، بما تقدمه؟

لا أحاول الاجابة عن هذا السؤال، فذلك ليس مهماً. وأهم منه سلوك الشاعرة بعد هذه المحطة، إذ باتت تكتب، وتعرض قصائدها فقط على الحلقة الحميمة من حولها، أو لا تعرضها، وتجمعها في رزمة تجلدها بغلاف من الجلد الأنيق، وتربطها بشريط، ثم تخبئها في خزانة مقفلة، رزمة تلو أخرى.

أكداس من الشعر المتفجر، ظل غافياً، في ظلام الخباء، منتظراً رحيلها كي يتجنح ويحلق إلى أقصى ما يبلغه الشعر.

لقد اكتشفت الكنز اختها **لافينيا**، وذلك على إثر وفاة الشاعرة متأثرة بمرض الكليتين، بتاريخ ٥ أيار عام ١٨٨٦ . وجدت ستة أجزاء تضم ما يقارب الألف والثمانمائة قصيدة، من عيون الشعر. وقد نشرت بين ١٨٨٠ و١٩٣٦ .

كان جميع أفراد الأسرة، يعلمون أن **املي** تكتب الشعر. ولكنهم لم يكونوا يقدرون أهيمته. والوحيدة التي تشذ عن القاعدة هي «**سو**» زوجة أخيها، وصديقتها. وفي فترة الخصب، كانت تكتب، وترسل قصائدها إليها. وقد بلغ عدد القصائد التي وجهتها إلى «**سو**» ثلاثمائة قصيدة. وفي إحدى رسائلها يبرز التقدير الذي كانت الشاعرة تكنه لهذه المرأة وهي مثلها شاعرة. ففي مطلع الرسالة كتبت إليها العبارة التالية: «**إلى سو: باستثناء شكسبير، لقد علمتني من معاني الحياة أكثر من أي مخلوق**».

لكن أعظم رسالة كتبتها الشاعرة إلى زوجة أخيها، كانت على إثر وفاة ابنها **جلبرت** وكان في الثامنة من عمره، وعمته **املي** تغدق عليه كل العطف، والأمومة التي حرمتها. وفجأة يختطفه الموت. وترتعش

اعماق الشاعرة من هول الصدمة. وتسجل عواطفها في الرسالة - القصيدة. لكنها لم تشف مطلقاً من حزنها على الطفل الحبيب.

* * *

الحب، الحزن، الطبيعة، هي العناوين الأبرز لشعر **ديكنسون**. وقد عرفت ألواناً من الحب. ومن الشعر الذي كتبته في حب الرجل:

«لماذا أحبك يا سيدي؟
لأن...
الريح لا تطلب الجواب من العشب.
وعندما تعبر، لا يبقى كما كان،
لأنه يعلم،
وأنت، لا. ونحن لا نعلم،
وان الحكمة تقضي بذلك».

و: **«شروق الشمس، يا سيدي،**
يطوقني،
لأنه الشروق
وأنا، لذلك أقف في النور أي: أحبك»

ومن اجرأ قصائدها في الموضوع:

«أيتها الليالي المتوحشة،
الليالي المتوحشة!
لو كنت معك،
لتحولت هذه الليالي
إلى ذروة الترف»...

وفي الطبيعة تقول:

«الطبيعة،
أحلى الأمهات،
الطفهن...
وحين تغرب الشمس،
صوتها في زوايا المكان،
يلهم الصلاة الهادئة»

ومن منابع الوحي الخفية، يتدفق الشعر:

«يتكوم كالرعد، ثم يتفجر،
بينما تخبئ سائر الأشياء
هذا هو الشعر،

أو الحب،
الاثنان متساويان،
ولا نقوى على البرهان،
أو المعرفة الحقيقية،
إذ ما من مخلوق،
استطاع أن يرى الإِله...»

و: «المستقبل لا يتكلم، ولن..
مثل أبكم، يومئ بالاشارة بمقطع صغير، عن الآتي الكبير».

ويتدفق الشعر، من منابع الوحي الخفية، وتكتب، وكأنها تلمح تلميحاً:

«لا تبحث عن الخلاص،
دعه يبحث عنك،
مثلما سيكون،
فالحب هو منقذ نفسه
ونحن، في أوج مجدنا،
لسنا سوى رموزه الضعيفة»

ويبقى الموت الذي رافق خطاها، من بدء الطريق، وعرفته في فقد الأحباء، وكأنما كان يسير في موكب حياتها، وعطائها الشعري. وإذا هز أعماقها، وأدمى قلبها، فقد نفخ في شعرها، فلسفة لا ينقص من قيمتها مرور الزمن:

«الموت لا يطلب الكثير، يا صديقي،
كأس ماء، فقط،
وجه زهرة،
ينقط الجدار...
ويؤكد أَنَّ ألوان قوس قزح لن تكون،
بعد رحيلك».

و: «لأني لم أستطع انتظار الموت،
تلطف هو، وتوقف لي،
لم يكن في العربة سوانا،
والخلود».

ومن أقوالها:

* **لأن الجمال هو اللانهاية...**
* **النغم في الشجرة؟ كلا يا سيدي، إنه في أعماقك.**
* **النجاح يعتبر الأحلى، في مقياس الذين لم ينجحوا.**

* **كي نفهم لذة الرحيق، علينا أن نذوق أقصى المرارة.**
* **الطبيعة بيت «مسكون» أما الفن، فهو بيت يبحث عمن يسكنه.**
* **الأصدقاء أوطان صغيرة.**

وللموت أيضاً

«حياتي وقفت،
مثل بندقية محشوة
في الزاوية،
بانتظار أن يمر صاحبي،
ويحملني...»

و «**الصاحب**» الذي مر، وحملها باكراً، وهي في أوج العطاء، لم يستطع أن ينقل معه رزمات من الأوراق المشحونة بشعرها الحي والشعر الذي جنته من حدائق الطبيعة البكر، والحب الكبير، وأعمق المشاعر الإِنسانية.

- سيرة حياة - تاليف توماس جونسون.
- حياة ورسائل أملي ديكنسون - تاليف مرتا ديكنسون بيانكي.
- الموسوعة البريطانية.
- موسوعة كاغستون.

سارة برنَار



«جمهوري... ذلك الوحش المحبوب».

سألتها **ماري**، ملكة بريطانيا:

- كيف تتحملين التمثيل كل يوم، فوق المسرح؟

فردت عليها ببساطة:

- سيدتي، سوف أموت فوق المسرح، إنه ساحة نضالي:

هذه هي **سارة برنار** أو **سارة «العظيمة»** كما لقبها أهل زمانها.

منذ حوارها الاول مع الحياة، اعطيت هذه المرأة أن تتحدث بلغة تختلف عن كل ما اعتادته الأسماع، وتتصرف بحرية وعفوية وغرابة، جعلت الناس يضيعون بين الحقيقة، والخيال... بين **سارة** الإِنسانة، وتلك الخارجة من بين دفتي الأسطورة.

* * *

ولدت **سارة** في الثالث والعشرين من شهر تشرين، الأول عام ١٨٤٠، في **باريس**، من أم لا تنتمي إلى أصل شريف، ولا تتمتع بسمعة حسنة، وكان اسمها **جوديت فان هارد. قدمت من هولندة وعاشت في باريس، وصار اسمها جولي أويول.** وهذا ما جعل ولادة الطفلة عبئاً ثقيلاً عليها، هي المنصرفة إلى حياة اللهو. فاهتم بالطفلة صديق أمها **ادوارد برنار**، وكان رجلاً ثرياً، فمنحها اسمه، وترك لها مهراً قيمته مائة ألف فرنك فرنسي.

* * *

أما الطفلة فسرعان ما انتقلت من حضن أم لم تعطها نزراً يسيراً من عاطفتها، إلى عهدة مربية في الريف، حيث تركت للإهمال والفقر. وبسبب هذا الاهمال، كادت أن تحترق، ذات يوم، وبقي الرعب من الحريق يرافقها طوال حياتها.

ويبدو أن حالة الفتاة تردت إلى حد جعل الأم تنقلها إلى ضاحية تبعد مسافة ساعة عن وسط **باريس**. ولم تكن تزورها إلا نادراً. وكم مرت أشهر طوال، قبل أن يطل على الطفلة وجه أمها.

* * *

ويبدو ان أعمال الأم في العاصمة الفرنسية انتعشت، فاستقدمت شقيقتها **روزين** من **هولندة**. وهكذا تعرفت **سارة** إلى **الخالة روزين**. فأحبتها أكثر من أي إنسان عرفته في طفولتها.

لكن الخالة لم تكن مستعدة لأن تضحي في سبيل الطفلة، أكثر من القيام بزيارة تحمل إليها بعض الهدايا.

بقيت **سارة** في عهدة مربيتها أربع سنوات إلى أن تزوجت هذه وشاءت أن تعيدها إلى أمها. وحين رفضت الأم استرجاعها، رضخت هي للأمر الواقع، وبقيت الصغيرة تشاطر الزوجين الفقيرين حياتهما البائسة.

وتدهورت صحتها، إذ أصيبت بداء السل، وباتت تحتاج إلى عناية خاصة. إنما هذا كله لم يحرك في صدر الأم أية عاطفة. وكان الأطباء يقدرون أن **سارة** لن تبلغ العقد الثاني من عمرها. كما لن تقوى على القيام بأي عمل.

في هذه الفترة المظلمة من حياتها، وقع لها حادث غريب، ومع الخالة **روزين** بالذات. أبصرتها تمر في عربة أنيقة إلى جانب شاب وسيم، فصرخت تناديها. وحين لم تلق جواباً، تسلقت جداراً قريباً، ورمت بنفسها فوق العربة. لكنها وقعت امام الخيل التي كادت أن تسحقها بحوافرها، لولا حذق السائق...

وأصيبت **سارة**، من جراء هذه السقطة، بكسر في عنقها وآخر في رأسها مما زادها بؤساً وأجبر الخالة على حملها معها إلى الطبيب.

* * *

لكن امها لم تكن مستعدة لتتحمل الصغيرة القذرة التي تفسد عليها حياتها، وتشوه أناقة دارها.

والطفلة لا تمل السعي إلى حضن الأم. وحين تبلغ مستوى الركبتين تتعلق بهما، فترفسها تلك بقسوة، ثم تتركها وتمضي.

وحين بلغت **سارة** سنتها الثامنة أرسلتها أَمها إلى معهد للطالبات الداخليات، حيث قضت سنتين تعلمت خلالهما أصول القراءة والكتابة والحساب والغناء والصلاة.

كانت نفسها الظمأى تبحث لها عن واحة، فوجدتها بين الصديقات، وفي حنان المدرسات.

وقد زارتها امها، خلال تلك الفترة، مرتين فقط. كانت إحداهما لمشاهدة حفلة تمثيلية تشترك فيها **سارة**. وما كادت الفتاة ترتقي خشبة المسرح، وتلمح وجه أمها بين الحضور، حتى أغمي عليها. وظل هذا الخوف من المسرح والمواجهة الأولى يرافقانها حتى نهاية حياتها.

وكانت **سارة** قد أصبحت في أوج تألقها، حين اقتربت منها ممثلة مبتدئة وراحت تفاخر بأنها لا تتهيب الصعود إلى المسرح. فما كان من الممثلة الكبيرة إلا أن ردت عليها بلهجتها الساخرة:

– إنتظري، يا عزيزتي، حتى تكبري وعندها تتذوقين طعم الخوف الكبير.

* * *

لم تكن دراسة **سارة** منتظمة. وقد أمضت في المدرسة ست سنوات فقط. لكنها استطاعت أن تفرض نفسها على أعظم الشخصيات الفكرية والأدبية والسياسية في زمانها...

وقد جمعت ثقافتها العامة، من معاشرة الناس المتقدمين في مجالات الفكر والفن. وكانت تصغي إلى **ماري كوري** أو **أديسون** يتحدثان عن الذرة، وأسرار الكهرباء، وتفهم ما تعنيه كل كلمة.

إنتهت سنوات المعهد الداخلي. وكان عليها أن تعود إلى أمها، وهي تمقت أجواءها الصاخبة، وحفلاتها، وتتذرع بشتى الأعذار لتظل بعيدة. ومن تلك الأعذار الاغماء، أو إفساد الحفلة ببقع الحبر... والأم ظلت بعيدة عن تقدير أحاسيس الصبية الناحلة، والتي كان يقول عنها الطبيب متندراً:

– **سارة، إذا تناولت حبة أسبرو تبدو حاملاً في شهرها الخامس.**

* * *

وفي يوم، كان بين زوار الوالدة **دوق دو موزني** فشهدها تتعارك مع أحد رفاقها وعلق على المشهد بقوله:

- **هذه الفتاة ولدت ممثلة.**

لكن مرحلة التمثيل جاءت متأخرة جداً عن هذا الكلام المتفائل، وبعد جهد طويل، وعناء شديد.

شاءتها أمها أن تتزوج رجلاً ثرياً. وكانت هي بعيدة جدا عن هذه الفكرة، إلى جانب رفض طبيعي نشأ في نفسها لكل ما تقوله تلك الام، او تفعله...

فقد شعرت باكراً جداً بأن خطاها تقودها نحو المسرح. لكن مزاجها الثوري، وشكلها العادي ثم خوفها من الجمهور، كلها عناصر تعمل ضدها. فقد كانت معاكسة تماماً للجمال المطلوب في عصرها، هي ناحلة جداً، بينما كان المطلوب في المرأة الجميلة امتلاء الجسم وبروز الانوثة.

وجهها يشبه وجه فرعون صغير. وخداها مطبقان، شاحبان، والمطلوب حمرة في الوجنتين، ونهوض في الخدين. وعيناها تبدوان كعيني قطة سيامية، لونهما أزرق في أوقات الرضى، أما إذا اعتكر المزاج، فيصبح لون الغضب مسيطراً عليهما. وأنفها بارز ومستقيم، وفمها، إذا ما أفتر عن ابتسامة، فإنه يذكر بحيوان **اللاما**. أما شعرها فكتلة جعدة حمراء اللون.

إنما كان لتلك الفتاة موهبة نادرة، فهي تستطيع، فوق المسرح، كما في الحياة، أن ترتدي الجمال كله، أو تخلعه على مزاجها. وهذا مكمن السر في شخصيتها الشديدة الجاذب.

* * *

ظهورها الأول على المسرح كان عادياً. ولم تمثل دوراً يلفت الانتباه. وقد تناولت الصحافة عملها ببرودة قاتلة.

إنما ذلك لم يثنها عن تصميمها على العمل الدائب لبلوغ القمة.

وأبصرت بصيص النور يأتيها من أهم المسارح الباريسية، وذلك حين قُبلت في فرقة «**لاكوميدي فرانسيز**».

لكنها ما كادت تثبت وجودها، حتى تدخل مزاجها الصاخب، وعكر عليها مسعاها. فقد تشاجرت مع زميلتها **ناتالي** وهي كبيرة ممثلات الفرقة، وصفعتها، وانتشر الخبر في الصحافة، وفي المجتمع، وباتت «**الصفعة**» حديث الصالونات الأدبية والاجتماعية، كما تحولت إلى مادة لرسامي «**الكاريكاتور**»...

وطردت **سارة** من الفرقة.

* * *

وعادت تبحث لها عن عمل في فرقة أخرى. ثم سافرت إلى اسبانيا وهدفها أن تتزوج مصارع ثيران. هذا ما دونته في مذكراتها لكنها لم توفق، فرجعت إلى **باريس**، وإلى حياة المسرح من جديد.

وكان المخرجون يرفضون قبولها على أساس أنها مزاجية، ولا يُعتمد عليها.

* * *

وتبلغ **سارة** العشرين من عمرها، فتتوقف عند محطة جديدة من العمر. وتلد ابنها **موريس** من أب بلجيكي، وذلك عام ١٨٦٤ .

وتشعر الأم بأنها تحتاج إلى العمل، كي تعيل طفلها، فقبلت أن تمثل في مسرح صغير لقاء أجر بخس.

وعاد والد الصبي، **الأمير هنري دولين** يعرض عليها الزواج، لكن أسرته عارضت بشدة، وانتدبت أحد أعمامه، ليتدخل كي لا يتم هذا الزواج. وحين زارها العم، وجد أمًّا طيّبة ترد طفلها إلى صدرها بكثير من الحياء والبساطة، فطلب منها أن ترفض الزواج بابن أخيه. فوعدته بتلبية طلبه. بل إنها استخدمت مواهبها التمثيلية كلها لتقنعه بعدم مبالاتها، ولكن ما كاد الرجل يخطو خارج عتبتها، حتى وقعت مغمى عليها.

وبقيت مريضة عدة أيام. وقد ترك الحادث حفرة عميقة في نفسها، رافقتها حتى آخر أيامها.

احتضنت **موريس**، وأغدقت عليه كل العاطفة، بل أفسدته بعاطفتها، وربما تعويضاً من حرمان ذاقته في طفولتها.

* * *

أما **سارة الممثلة**، فظلت تتعثر في خطاها حتى العام ١٨٦٨ حين مثلت دوراً هاماً في مسرحية **ألكسندر دوماس الابن**.

وبدأ نجمها يتألق. ثم عملت في **مسرح أوديون**. وحين شعرت بأنها في حاجة الى من يساعدها في تربية ابنها استقدمت جدتها. كما انتزعت شقيقتها **ريجينا** من أجواء الوالدة، لتعيش معها. وهكذا أصبح لها عائلة إلى جانب خادم وطباخ.

وبدأت الأسطورة تكبر، والاسم يرتفع، ويطوف بين اعمدة الصحف، وصالونات النخبة. ووسعت **سارة** دارها، وكانت تعرف لدى الأصدقاء باسم البلاط.

وصارت هي تتصرف مثل أية سيدة واثقة بنفسها، لكنها لم تتخل لحظة عن صفات تميز شخصيتها، وتسمها بالغرابة.

كان في حياتها أمران في غاية الأهمية: ابنها، الذي دللته حتى أفسدته، وفنها، وهذا لم تسمح لأحد بأن يفسده.

* * *

ونطوي صفحة الحياة الأولى، لنفتح الصفحة المشرقة، والتي منها أطلت **سارة برنارد** على التاريخ.

دارها محجة الأصدقاء والمعجبين. نوابغ العصر يلتقون عندها. من أصدقائها: الكاتب **ألكسندر دوماس، غوستاف فلوبير، جورج صاند، كوليت، لويس باستور، أوسكار وايلد** وسواهم، من الصحافيين والأمراء وأصحاب الألقاب الطنانة...

وهي تتربع فوق عرش صممته حسب ذوقها الغريب، وحشدت حولها أثاثاً متباين الأساليب، حتى أن أحدهم وصف صالونها بأنه يشبه باحة للبيع بالمزاد، ولكن... قبل بدء المبيع.

وأحاطت نفسها بمجموعة من الحيوانات والطيور والزواحف، وقد بلغ بها التطرف أن دجنت نمراً، وطلت بيت السلحفاة بالذهب. ولم يكن مستغرباً أن يفقد أحد زوارها قبعته، ليجدها بين فكي حيوان مدلل.

غريبة كانت علاقتها بالحيوانات في حياتها اليومية والمسرحية. وقد طلبت من مخرج مسرحية، «**كليوباطرة**» أن يزودها بأفعى حقيقية لتستخدمها في المشهد الأخير.

ويروى أن أحد الممثلين الكبار زارها ذات يوم في دارها، ثم أقسم على ألاَّ يعيد الكرّة، كي يظل محتفظاً بصورة محترمة لسيدة المسرح.

ولم تكن **سارة** تطيق الوحدة لحظة واحدة، فإذا ما انصرف زوارها، ورواد بلاطها، أرسلت إلى الخدم، تستعطفهم كي يأتوا ويسلوها.

* * *

وكانت **سارة** باذخة في عطائها الفني، كما رافقتها صفة البذخ في حياتها، فلم تكن تحسب حساباً للنفقات.

وإذا ما أعجبتها حاجة، اشترتها مهما بلغ الثمن. وكانت تستقدم الفراء من **روسيا**، والقطيفة من **إيطاليا**. وكلفها ثوب ارتدته في «**غادة الكاميليا**» عشرة آلاف فرنك، في حين لم يكن دخلها كله يتجاوز العشرين ألفاً.

* * *

مثلت **سارة** أدوار نساء ورجال. واحتفظت لنفسها ببطولة خمس وعشرين مسرحية هي أفضل ما عرفه زمانها. وكانت تنغمس في دورها إلى حد تقطع أنفاسها، وتمثل الموت بصدق، حتى ليظن كل من يشاهدها أنها فارقت الحياة فعلاً.

وكانت تصاب بالاغماء، وينزف سقف حلقها، بسبب تأثرها البالغ من الناحيتين، الجسدية والنفسية. لكنها، لا تكاد تسمع تصفيق الجمهور حتى تعود إلى الحياة، مع كل الشوق والحماسة.

* * *

مثلت **سارة** أدواراً متعددة ظل أبرزها دورها في مسرحية «**فيدر**»، **لراسين**. و«**هيرناني**»، **لفيكتور هوغو**... وفي اليوم التالي لافتتاح المسرحية، أرسل إليها **هوغو** دمعة من ألماس مع العبارة التالية:

– **هذه دمعة سكبتها وانا أشاهدك أمس. وإني أضعها بين قدميك.**

ولم يقتصر الاعجاب على الطبقة المختارة، بل كانت **سارة** معشوقة الجمهور العام، والطلبة. وفي اثر تقديم الحفلة الأولى لمسرحية **هوغو**، بلغت حماسة الطلاب حداً قطعوا معه حبال العربة، وراحوا يجرونها بدل الخيل، ويطوفون بها شوارع **باريس** وهم يهتفون: «**إفتحوا الطريق لسارة العظيمة**».

هذه الحماسة كانت تتكرر لدى أي لقاء مع الجمهور الذي أطلقت عليه لقب: «**الوحش المحبوب**».

* * *

وعادت **الكوميدي فرانسيز** تطلبها للعمل في أهم مسرحياتها. وكانت قد أصبحت في مركز تملي منه الشروط والمزاج. لكنها لم تلبث أن أنشأت مسرحها الخاص، وفرقة لم يقتصر عملها على فرنسا، بل طافت عدة بلدان بينها **أميركا** حيث كان لها استقبال الملوك، وكتبت عنها الصحف مقالات قيل انها تغطي مساحة الكرة الأرضية.

وكان الجمهور، يصاب بحماسة، تفقده المنطق، وتغرس الخوف في صدر الممثلة فتهرب من أقرب الأبواب.

روت الصحف عن **سارة** حكايات أقرب إلى الأساطير. ولم تكذب واحدة منها. واختلطت الحقيقة بالخيال، والواقع بالأسطورة،

ذلك أن المرأة نفسها، كانت مزيجاً من الاثنين. فقد صنفت أعظم شخصية نسائية في **فرنسا** منذ ظهور **جان دارك**. وليس عجباً أن تبلغ ما بلغته بعدما عملت واحداً وستين عاماً، كانت كلها نضالاً وتسلق قمم. وظلت تتحرك برشاقة نمرة إلى أن بترت ساقها، ولها من العمر اثنان وسبعون عاماً.

وكانت قد جاوزت الخمسين من العمر، حين أسست مسرحها الخاص، وظلّت تنهض في السابعة صباحاً، وتعقد اجتماعاتها في الثامنة، ثم تتابع العمل حتى ساعة متأخرة من الليل.

والمحيطون بها يتساءلون عن سر نشاط المرأة، الذي مصدره في الأغلب، الثقة بالنفس، والايمان. وهي القائلة بأن **الحياة تولّد الحياة، والعمل يعطي ثماراً تنعش النفس، ومن ينفق من خميرة ذاته يصبح ثرياً**. ونشاطها لم يقتصر على المسرح، كما أنها لم تقم في برج عاجي، إذ مارست شتى انواع الفنون من الرسم والنحت، والموسيقى، والكتابة إلى صيد السمك ومطاردة الحيتان والتدرب على السلاح، هذا إلى مغامرات خارقة لاكتشاف أسرار الطبيعة.

ومع انها كانت ضد الاعدام إلا أنها شهدت تنفيذ الاعدام بأربعة أشخاص. وطلبت من أحد الجراحين، إذا كان في استطاعته، أن يركب لها ذنب نمر، كي تلوح به في ساعات الغضب.

مثل هذه الحركات جعلت بعضهم يسميها **المجنونة العظيمة**. وانصرف كتّاب السيرة إلى تدوين دقائق حياتها. قال فيها أحد المخرجين: «**سارة لا تحتاج إلى مظلة، تستطيع السير بين حبات المطر**».

أما **ألكسندر دوماس الابن** فكان يقول: «**ان لها مقدرة خارقة على الخداع، والكذب. ويمكن أن تكذب للمتعة. ففي وسعها أن تجعل نفسها سمينة أو هزيلة، حسب ما يتطلبه دورها**»...

وكانت تدعو أحد الشخصيات بإصرار، ليزورها وتضرب له موعداً، كما فعلت مع كولونيل بارز في الجيش، وحين قدومه، ترسل الخدم ليقولوا له:

– **السيدة سارة لا تستطيع أن تستقبل السياح.**

هذا التصرف الشاذ، كان يقابله إخلاص في العمل، ندر مثيله. وكانت لها المقدرة على حفظ أصعب الأدوار بعد قراءته أربع مرات.

* * *

إرتكبت **سارة** غلطة العمر حين قامت بزيارة **روسيا**. فقد أصابت هناك، نجاحاً باهراً، ومثلت في بلاط **القيصر ألكسندر الثالث**، ولما انحنت أمامه، في نهاية المسرحية، تقدم وقبل يدها وهو يردد:

– **أنا من يجب أن ينحني أمامك، سيدتي.**

أما الغلطة فكانت لدى تعرّفها إلى شاب وسيم، «**جاك دامالا**»، وكان شاغل نساء الطبقة الأرستقراطية. وقد أفقدها اتزانها. برغم كونه عديم الأخلاق انتهازياً، ولم يبد إعجابه بها، وظل متكبراً. وقد أدخلته فرقتها، وأعطته الدور الأول، وهو لا يملك من المواهب سوى الشكل الحسن.

وعندما لاحظت أنه معجب بالممثلات الصغيرات، اقترحت عليه الزواج، وتم ذلك في ٤ نيسان عام ١٨٨٢، ثم ندمت فوراً...

وقد علق ابنها على هذا الحدث بقوله:

- **أمي تزوجت السيد سارة برنارد.**

لكن **سارة** تابعت سعيها مع هذا الرجل، وأنشأت مسرحاً باسمه، وبقي الفشل حليفه، وغرق في الادمان، والغيرة من شهرتها. وكاد أن يحطمها، لو لم تستيقظ فجأة، وتعي أية غلطة ارتكبت. فانفصلت عنه. وقامت برحلة فنية إلى **البرازيل**، وفي طريق العودة وقعت وأذت ركبتها. وكانت تلك الوقعة بدء عذاب لازمها حتى النهاية. وحين بتر الأطباء إحدى ساقيها وكانت في الثانية والسبعين من عمرها، كان سبب ذلك تلك الوقعة...

لكن هذا الحدث لم يمنعها من التمثيل. وظلّت تقول: «**فليقطعوا جميع اعضاء جسمي، وليبقوا لي الرأس فقط**».

ورفضت أن تُركب لها ساق صناعية، فابتكرت كرسياً خاصاً بها، تُحمل فيه فوق المسرح، متدثرة بثياب فخمة فضفاضة تخبئ النقص.

وقامت بزيارة جديدة **لأميركا**، ومثلت فيلمين صامتين لم يكتب لهما النجاح، إذ فقدا حضور صوتها الساحر.

ثم تابعت جولاتها الفنية في **فرنسا**، وكانت، في أوقات الفراغ، تكتب قصصاً للأطفال.

وخلال إحدى جولاتها الفنية، أغمي عليها فوق المسرح، ولما عادت إلى وعيها كان أول سؤال طرحته: «**متى نبدأ؟**».

* * *

لكن **سارة** لم تبدأ بأي عمل. فقد ظلت طريحة الفراش شهراً، ولم تتوقّفْ عن الحديث على المسرح. وقبلت عرضاً من **ساشا غيتري** للظهور في فيلم من إنتاج **هوليود**. وأعد كل شيء ليتم التصوير في

بيتها، لكنها لم تلبث أن عادت الى الغيبوبة، حتى إذا استعادت وعيها، لدقائق، كانت تتمتم كلاماً عن المسرح، والفن، وأزهار الربيع. وقالت لابنها موريس:

– إختر لي غطاء من أزهار الليلك.

وحين سرى خبر مرضها، تجمع الناس حول دارها، فسألت: «**هل هناك صحافيون؟**»، ثم تابعت، بلهجة لم تفقد سخريتها:

– كانوا دائماً يعذبونني، والآن جاء دوري...

وكانت هذه آخر كلماتها. فقد توفيت في السادس والعشرين من شهر آذار عام ١٩٢٣ . وقال أحدهم، معبراً بلسان الجميع:

– رحلت سارة... كم ستكون الدنيا مظلمة، بعد اليوم!

ومما قالوا فيها:

* **إذا كانت هناك لذة تفوق لذة مشاهدتها فوق المسرح، فهي مشاهدتها في حياتها اليومية.** (ساردو).

* **إنها تنشد مثل حسون، وتتأوه كالريح، وتكر كالمياه، وصوتها الساحر يداعبك كما الأنامل المحبة الناعمة.** (لامارتين).

* **مشاهدتها فوق المسرح ممتعة، كمشاهدة حيوان شرس في قفص** (الصحافة).

* **صوتها أكثر من ذهب.. فيه الرعد والبرق، والجحيم والنعيم** (ليتون ستراخي).

* في امكانها أن تدخل الدير، تكتشف القطب الشمالي، تغتال امبراطوراً أو تتزوج ملك الزنوج... لا يفاجئني شيء من ذلك، فهي ليست فرداً، بل مجموعة شخصيات. (جول لوميتر).

- سارة برنار تاليف كورنيليا أوتيس سكير.
- الموسوعة البريطانية.

املين بانكهورسث



«لن نرتاح قبل ان نحصل على حقوقنا...».

«للاسف ليست صبيا»...

تسمع الطفلة هذا التعليق فتتقلّص، وتغضب، وتحاول أن تكبت غضبها، بينما هي تتظاهر بالنوم.

أغمضت عينيها وشدّت، حين شعرت بوالدها، صاحب الكلام، يقترب من سريرها، حاملا بإحدى يديه شمعة، بينما يحاول باليد الاخرى، أن يحميها من الهواء.

انحنى أبوها وقبلها فوق جبينها ساكبا عطفه واعجابه في تلك القبلة.

كانت الصغيرة تعلم مدى حبّ هذا الاب واعجابه بها، بل تفضيله إيّاها على اخوتها الذكور. ولم يكن يزعجها كونها فتاة، فلماذا تصدر تلك العبارة عن أبيها؟... ولماذا تسمعه أمها، ولا تدافع؟؟...

وحين كبرت الفتاة، أدركت تماما معنى قول أبيها: فهو يقصد تقديرها ومديحها، اذ كان الرجال، في زمانها، يُعتبرون متفوقين على النساء. ولم تكن هناك أيّة مبادرة من جهة النساء لتبديل هذا المفهوم.

وبقيت هذه الكلمات مهمازا في خاصرتها مدى الحياة.

* * *

انها **املين غولدين**، وقد اشتهرت باسمها بعد الزواج: **املين**

بانكهورستْ، أول امرأة تدعو الى المساواة بين الجنسين، وأول امرأة تستخدم صدام العنف، كي تحصل على حق الاقتراع...

وُلدت **املين في مانشستر بإنكلتره**، في ١٤ تموز عام ١٨٥٨ . وعرفت، من حكايات العائلة، قصة جدها لابيها، وقد خطف في سن المراهقة وزُج به في البحرية عندما دخلت بلاده الحرب. وعاد عام ١٨١٩ ليجد ان العائلة والاصدقاء تفرّقوا. وكاد هو أن يُقتل في تظاهرة خرجت تطالب بالاصلاح...

وجدتها لامها، كانت تروي لها حكايات كثيرة عن المجاعة في منتصف القرن التاسع عشر. وبدأ الشعور بالظلم الذي يلحق بفئة من الناس يتعمّق في نفس الفتاة وأخذت تفكر: كيف يمكنها ان تساعد في سبيل تحقيق العدالة؟...

كان أول شعور بالظلم مسها شخصيا، حين لم يكترث والداها، على حبهما وتقديرهما لها، لأن يرسلاها الى المدرسة اسوة بالاخوة الذكور. ولم يكن باب العلم مفتوحا في وجه الفتاة آنذاك.

ورفضت **املين** هذا الواقع. وقد تعلّمت في البيت اكثر من المدرسة. وبدأت تطرق سمعها كلمات تشير الى حق المرأة في الانتخاب. وكان قد صدر قانون يعطي لكل صاحب ملك أن يشترك في الاقتراع، بالطبع، باستثناء النساء. ويوم الانتخاب، نهضت الفتاة باكرا وارتدت ثيابها، وجرّت أختها الصغرى، ماري، الى مركز الاقتراع، حيث يحق للرجال فقط أن، يحضروا.

سألتها اختها بوجل:

- هل سندخل مع الرجال.

فردّت: **بالتأكيد لن ندخل. سوف نبقى خارج المركز، ونتظاهر.**

وتظاهرت بأن رفعت طرف ثوبها لتبدو شارة حزب الاحرار باللونين: الاحمر والاخضر. وقضت الفتاتان وقتا وهما تتمشيان، من دون أن يبالي بهما احد من الناس. وفجأة شعرت **املين** بيد ثقيلة على كتفها: كانت تلك يد الخادمة المرسلة من قبل أمها:

– **بحق الله، ماذا تفعلين يا آنسة؟**

– **أتظاهر، ألا ترين؟...**

أمسكت بها يد الخادمة وقادتها:

– **عودي الى البيت... أمك تنتظرك.**

وعادت بغضب المراهقة الخائبة.

* * *

لكن الام لم تكن على الحياد تماما. فقد رافقت **املين** وهي لا تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها، الى أول اجتماع عقدته النساء المناضلات. كانت رئيسة الاجتماع **ليديا بيكير**، وقد تحدثت باخلاص عن أوضاع المرأة، وختمت بقولها: «**سوف يأتي يوم يصبح فيه كل رجل وكل امرأة عاملين للمساواة**». وكتبت املين، فيما بعد، في مذكراتها عن تأثير المناسبة: «**خرجت من ذلك الاجتماع مناضلة**».

والفتاة التي ستصبح المناضلة النسائية الاولى في بلادها، كانت طالبة خجولة، في المدرسة، كما في المجتمع...

اما أبوها الذي ثارت عليه حين وضع فوارق بينها وبين الاخوة، فلم

يتردّد في إرسالها الى معهد **باريس** لتكتمل نموا كسيدة في زمانها. وهناك دخلت معهدا لاتمام دراستها العليا. وكانت رئيسة المعهد تؤمن بالمساواة في فرص التعلّم بين الجنسين. كما التقت صديقة اسمها **نيومي روشفور** ابنة أحد النبلاء، تنازل عن لقبه، ونزل الى ساحة النضال؛ وأعجبت **املين** بقصة الوالد، كما ارتاحت الى **نيومي**، ومن خلالها تعرّفت الى الحياة الثقافية في العاصمة الفرنسية، ورجعت الى بلادها في السن السابعة عشرة، أنيقة، ناضجة، ممتلئة ثقة بنفسها وبمؤهلاتها، وتائقة الى العمل... أي عمل؟... وهل هناك مجال؟

قضت سنة بطولها في البيت، وحين اقترح الاب أن تذهب أختها **ماري** الى المعهد الباريسي تقدّمت هي لمرافقتها.

* * *

كل ما سبق من خطوات ومراحل، كان بمثابة اعداد الفتاة للفرصة القدرية التي ستتاح لها. فقد رافقت والديها الى محاضرة يلقيها الدكتور في الحقوق **ريتشارد بانكهورست**. كان هو في الثانية والاربعين من عمره، في أوج نضجه المهني، وكانت هي في العشرين. وهو أشد رجال زمانه تحمّسا لقضية المساواة. وكتبت في مفكرتها عن اللقاء الاول: «**كنت أنتظر مع والدي وصول المحاضر، عندما لمحت يدا جميلة تفتح باب العربة**»... وهو لاحظ الفتاة الجميلة، ذات العينين الذكيتين، برغم انهماكه، وغرقه وسط جمهور المعجبين. وكان والداها من بين أولئك المقدّرين. ووقعت **املين** في حبّ الرجل، وحب المثال الاعلى لطموحها. لكنها شعرت بالارتباك امامه: فهي جاهلة اذا ما قاست معلوماتها بما له من معرفة. لكن الحب يفتح الابواب

الموصدة، ويمهّد السبل ويزيل العقبات. وكان اللقاء منعطفا في حياة الرجل الذي كرّس نفسه لرسالته. فقد أدرك أنه التقى المرأة التي تعينه وتقف معه. وهكذا وجّه اليها رسالته الاولى، لا ليبثها لواعج القلب، بل ليطلب اليها ان تساعده في حركة تسعى الى اكتساب حق الفتاة في تحصيل العلوم العالية. وبعد انقضاء اسبوعين على تاريخ الرسالة، تمّت الخطبة الرسمية، وأصبحت **املين** «**كنزه الثمين**» كما كان يسميها.

* * *

وظلّ الشعور بالنقص يرافقها: فطلبت من زوجها ان يرشدها الى الكتب الجيدة لتقرأ، وتكمل طريق نموّها. وكان هو يحترم ذكاءها، فأعطاها قائمة بأسماء الكتب المختارة. وانصرفت الى المطالعة لفترة، ثم لم تلبث أن سئمت... ذلك ان خطّها هو الحركة، لا النظريات. كانت تريد أن تفعل، وتتحرّك... لكن الحمل أرجأ مشاريعها. فخلال السنوات الخمس الاولى إثر الزواج انجبت أربعة اطفال: **كريستابيل**، **سيلفيا**، **فرانك وأديلا**. وقد مرضت بعد ولادة الطفلة الرابعة ولازمها ألم في الرأس وعسر هضم، مدى الحياة.

* * *

وكانت الخطوة التالية انتقالها مع العائلة الى **لندن**، حيث فتحت مع أختها الفنانة **ماري** مخزنا لبيع الاشياء الفنية. وكانت تعتبر محاولتها وسيلة لاقناع الناس بقدرة المرأة على القيام بأي عمل. وذلك يساند نظريتها. وبالطبع لم يعترض الزوج الذي كان يرى انه على المرأة التي تريد ان تحصل على حق الانتخاب، أن تبرهن على كفاءتها.

وجاءتها ضربة القدر من حيث لم تحسب. فقد كانت ترافق زوجها في رحلة عمل قام بها الى **مانشستر** حين استلمت برقية تدعوها الى العودة السريعة، بسبب مرض ابنها **فرانك**. لكن عودتها لم تنقذ الصغير، فقد توفي بمرض الخانوق. وحوّلت مشكلتها الخاصة الى غضب ضد الفقر والحاجة. ومنذ تلك الساعة قررت أن تكافح، من أجل ان تكون للاطفال بيئة سليمة. ان المخزن، الذي شاءته **املين** وسيلة لمساعدة العائلة ماليا، لم يلبث ان تحوّل الى عبء عليها وعلى زوجها. وفي هذه الاثناء وضعت طفلا سمته **هاري**. وقد عوّضها من طفلها المفقود، لكنها دفعت ثمنا باهظا من صحتها. وهذا ما جعلها تهدأ نسبيا، وتكرّس وقتها لتربية الاولاد، وقد عاشوا طفولتهم في مناخ السياسة اذ كانت الحديث المتواصل، والسلوى الفكرية؛ وقد بدأوا يتدرّبون على اصدار صحيفة بيتية، كما كانوا يحضرون الاجتماعات التي تُعقد في صالة الاستقبال برئاسة الوالدة.

لم يكن الظهور أمرا سهلا على **املين** التي تحتفظ من طفولتها بالخجل. لكنها بدأت تتدرب على التحدث في الاجتماعات برغم جفاف الحلق، وتسارع ضربات القلب. وتحث نفسها على المضي قدما: «**لكي أنفع مجتمعي عليّ أن أواجه بشجاعة**». ولم تلبث ان بدأت تشعر بسحر كلامها وشخصيتها، كما فوجئت بقبول الآخرين تسلّمها زمام القيادة. كان لها من الجاذبية ما يحرّك الناس في اتجاهها، ويجعلهم يفعلون ما تريد.

ولم تنسَ جيل الشباب. وأصبحت فتياتها واسطة لانشاء علاقة طيبة مع الاصغر سنا، وكانت تردّد في خطاباتها: «**نحن نحتاج الى**

الشباب، ليمدّنا بالشجاعة، كما يحتاج الشباب الينا ليستفيد من خبرتنا».

* * *

في هذه الفترة، انتقلت العائلة الى الريف. ولم تكن صحة الزوج او أشغاله على ما يُرام. والزوجة صمّمت على المضيّ في النضال حتى النهاية. وها هي تعود الى المسرح السياسي في بلدتها. وكان شتاء ذلك العام قاسيا، والاعمال قليلة. فنظّمت فرقا للاغاثة من الجوع. وكانت هي تطوف يوميا على مخازن الاغذية، تتسوّل العظام، وبقايا اللحوم والخضار، كي تصنع منها حساء تقدّمه الى المشردين والعاطلين عن العمل. وانتدبت لجنة للاهتمام بالنساء والاطفال. ولم تغفل الاجتماعات السياسية، كما ان اهتمامها بالمسنين، والاطفال والعاطلين عن العمل، لم ينسها القضية الاولى، وهي اصلاح النظام: **«أجل، ما نفع نظام يُعطي اولاد الاغنياء كل شيء، ويحرم أولاد الفقراء حتى من لقمة العيش؟... غايتي أن يحصل كل عامل على الاشياء الضرورية في الحياة».**

* * *

حين كانت في **باريس**، اتفقت مع صديقتها **نيومي** على أن يتبادل أولادهما الزيارات وفي ضوء هذا الاتفاق، حملت ابنتها الكبرى الى **جنيف**، حيث تقيم الصديقة. وهالها ان تجد الفتاة التي كانت حلوة، جميلة، في مطلع الصبا، قد تحوّلت الى امرأة ضخمة فاقدة الجاذبية! كذلك التقت كاتبا كادت أن تتزوجه في مطلع صباها وقد تحوّل هو أيضا الى كتلة من الشحم والضجر، بينما ظلّت هي محتفظة برشاقتها

وحيويتها. لكنها لم تكمل الزيارة، اذ جاءتها برقية مستعجلة، تعلمها بأن زوجها مريض. فعادت بسرعة. ولدى وصولها الى محطة القطار في **مانشستر**، لاحظت نبأ وفاة على الصفحة الاولى... وكان نعي زوجها.

* * *

مثل حلم مزعج تكر الايام التالية. ولم تعزّها مئات الرسائل والبرقيات، وكلها تتحدّث باحترام، عن الرجل الذي ضحّى بوقته وحياته في سبيل الخدمة العامة. وقد كتبت على شهادة قبره: «**وفيٌّ وصادق، ورفيقي الحبيب**».

ترك غيابه فراغا كبيرا. لكنها ليست المرأة التي تستطيع أن تغرق في الحداد. كان عليها ان تفكر في مستقبل الاولاد، خصوصا وان الزوج مات فقيرا. وكان أول ما فعلته انها انتقلت الى بيت صغير، وبدأت تعمل موظفة في دائرة النفوس. وكانت مسؤولة عن تسجيل الولادات والوفيات. وقد أعطاها عملها فرصة الاتصال بالناس؛ واكتشفت كم هو كبير عدد الآباء الذين لا يحملون مسؤولية اولادهم... وكيف ان المعلمات يقبضن اجورا أدنى من أجور المعلمين: «**يكاد غيظي يحرقني، عندما أسمع عن المعاملة المجحفة بحق المرأة**». وهي تؤمن بأنه لا يمكن ان تسود العدالة في مجتمع لا تتقدم فيه المرأة أسوة بالرجل: «**الآن، وليس غدا، يجب ان تصبح المرأة عضوا في المجلس**».

* * *

عادت ابنتها **كريستابيل** من **سويسرا** ممتلئة حماسة مثل امها.

وكانت قد اصبحت صبية ناضجة. وواظبت على الدراسة وحضور الاجتماعات السياسية التي تعقد في البيت برئاسة امها. وبدأت الام تتنقل بين الاندية، تخطب، وتسحر الناس بصوتها، وجاذبية شخصيتها. وكانت تتوجه الى العمال والمزارعين وتدعوهم الى النهوض، والسعي لتحسين الاوضاع.

وبدأت الحركة تلوح بالتهديد. وبالفعل حصلت اول مواجهة عنيفة، حين اعتقلت الشرطة **كريستابيل** لانها تجرأت وطرحت سؤالا في المجلس، اذا كان سيتاح للمرأة ان تنتخب. وقد خيرتها الشرطة بين السجن او دفع الجزية، فاختارت الامر الاول. ولما حاولت أمها ان تفتديها رفضت مؤكدة لها أنها لو فعلت فلن تعود الى البيت.

وشعرت **املين** بأنها لن تستطيع ان تتراجع. فالواقع يحفزها على المضي في النضال حتى آخر الشوط. وقد تحدثت الصحافة عن الاعتقال بشكل سلبي. واطلقت **الدايلي مايل** على سيدات النضال لقبا سوف تعرف به هذه الحركة في كل مكان: «**سفراجيت**».. اي «**المناضلات**».. و **املين** القائدة الاولى لهن.

الخطوة التالية كانت استغلال سبل الدعاية. واغتنمت السيدات فرصة انتخاب الرئيس الجديد فحاصرنه بطوق من الاسئلة: «**هل ستنال المرأة حق الاقتراع؟. هل تحصل المرأة العاملة على العدالة الاجتماعية؟**»... وكان ذلك الخطوة الاولى لعدة محاولات. ولم يعد احد من رجال السياسة قادرا على التحرك بعيدا عن حصار المناضلات، الشاهرات شعارهن الاول: حق الاقتراع للنساء.

* * *

وجهت **كريستابيل** الى امها نصيحة لكي تنقل ساحة النضال الى العاصمة وذلك عام ١٩٠٦ . وكان الملك قد اعطى حق الانتخاب للذكور، ولم يرد ذكر للنساء. فسارت **املين** تحت المطر، على رأس تظاهرة الى مجلس العموم، ولدى وصولهن وجدن الابواب مقفلة، والشرطة واقفة للحراسة ومنعهن. لكن صوتا من الداخل كان يطالب بالسماح للسيدات بدخول المجلس. كان ذلك صوت رئيس حزب الاحرار. ودخلن، فرقا، وسمعن كلاما ساخرا، بل ومُهينا... وارتفع صوت امرأة يتذمر، ثم اخرى. ودخلت الشرطة لتمنعهن من إبداء الرأي. فأعطت **املين** اشارة التحرك، وفجأة تدلّت من الشرفة المشبكة حيث حوصرت النساء، أعلام بيضاء كتب عليها: «**حق الاقتراع للنساء**».

واعتبر ذلك إخلالا بالأمن. فألقت الشرطة القبض على مجموعة من النساء، ثم أخلي سبيلهن، وتفرقن على موعد اجتماع مقبل.

وتابعن العمل لاقلاق راحة الحكومة لدى انعقاد الجلسات، وطرْح الأسئلة، ومنها:

– هل يحق للمرأة اعطاء رأيها في تربية الاولاد، اسوة بالرجل؟..

ما كادت القائدة تنهي السؤال حتى قبض عليها. وأجبرت على الخروج من القاعة. ومنذ تلك اللحظة قررت ان تبدأ بارتداء الاقنعة: الأزياء الفخمة. الفراء. قبعة مزدانة بريش النعام.. امرأة ارستوقراطية محمية.

ودعت رفيقاتها الى الاقتداء بها. لكن الزي الجديد لم يُبدّل من

سلوك الشرطة، وحين حضرت الجلسة التالية، وبدأت تطرح الاسئلة، ومن حولها اصوات الاحتجاج، تعرضت لمهاجمة عنيفة، وفي اقل من لمح البصر كانت القائدة تتوسد ارض القاعة. وتلا ذلك اعتقالها مع عشر نساء، بينهن ابنتها الصغرى، **اديلا** التي قضت في السجن ستة اسابيع. واما ابنتها **سيلفيا** فاعتقلت وسجنت مدة اسبوعين.

* * *

لا بد من الاستمرار في التنظيم، وبالفعل، انشأت **املين** مجلسا نسائيا، عقد اجتماعه الاول في شهر شباط، عام ١٩٠٧، للبحث في موقف الحكومة من المرأة: «**اننا مستعدات لدخول المجلس او السجن**». تحت هذا الشعار سارت ألوف السيدات المحترمات الى المجلس ليجدن الباب مقفلا، والشرطة تقيم حاجزا دون بلوغهن القاعة. ودارت معركة العنف الاولى بين رجال الشرطة والنساء. ولم تكن هناك رحمة، حتى ان بعض رجال الشرطة مروا على احصنتهم فوق اجسام النساء. ولم ترتدع السيدات.. برغم ذلك كله. بلغت فئة منهن مجلس العموم وأوصلت الرسالة. لكنهن لم يسلمن من الاعتقال. وأخلي سبيل **املين** لكن ابنتيها دخلتا السجن من جديد مع صدور امر بصرف الام من وظيفتها ان لم تتخل عن النضال. وبالطبع تخلت عن الوظيفة.

* * *

أطلت، عام ١٩٠٨ مع قرار جديد لان تنقل القائدة ساحة المعركة الى **لندن**. وكانت رفيقاتها جميعاً قد دخلن السجن ما عداها. وقد تسببت حملتها بفشل حزب الاحرار، مما جعل جماعة من المحازبين

يهجمون عليها ويضربونها ثم يطرحونها فوق الوحول وهم يصرخون: «**أولئك النساء كن السبب**». ولو لم تتدخل الشرطة لانقاذها كادت الجماعة تزجها داخل برميل. وقد خرجت من هذه المعركة مرضضة، تجر إحدى ساقيها جرا. وحين بلغت مركز المجلس، اعتلت المنبر، شاحبة الوجه حزينة، وخاطبت رفيقاتها باختصار: «**آن وقت التحرك**».

وسمعت اصوات اعتراض بسبب ضعف صحتها: «**لا نريد ان نفقد زعيمتنا**».

فردت بهدوء: «**اذا كانت اي واحدة منكن قادرة على دخول السجن، فكذلك انا**». و «**لن نستريح قبل ان نأخذ حقوقنا**».

وما كادت تخرج من السجن حتى نظمت تظاهرة تاريخية في هايد بارك اظهرت خلالها قدرتها الهائلة على التنظيم واستقطاب الجماهير. فقد كان هناك عشرون منصة؛ وبدأت الارشادات والتخطيط للمسيرة قبل اسبوع من موعدها. وسارت هي على رأس واحدة مؤلفة من سبع فرق. ولما صعدت المنصة، وادارت عينيها في الجماهير الغفيرة المتدفقة على المكان، لم تصدق ما رأت. كانت تتوقع ان يلبي الدعوة عدد يقرب ربع مليون نسمة. لكن صحيفة **تايمز** ذكرت ان الرقم تضاعف وكانت النساء جميعا يرتدين ألوان المناضلات:

الأرجواني، الابيض والاخضر.

الخطابات من عشرين منصة وكلها تردد عبارة واحدة: «**حق الاقتراع للنساء**». لكن ذلك كله لم يؤثر على المجلس او الحكومة.

ومن هنا، بدأ الصراع العنيف. ورشقت النساء مقر رئيس الوزراء بالحجارة.

وعادت حياة الكر والفر... من السجن واليه. وانتقل صوت المناضلات الى خارج حدود بلادهن...

* * *

كانت القائدة النسائية تصارع على الجبهة العامة، وتواجه صراعا آخر داخل بيتها: ذلك ان الابن الصغير أصيب بشلل نصفي، ولكي تتمكن من مساعدته، اغتنمت فرصة خروجها من السجن، وسافرت الى **اميركا** لتلقي سلسلة محاضرات، تستخدم جزءا من ريعها في تطبيبه. وألقت اول محاضرة في قاعة **كارنجي** الشهيرة، وتهافت الناس لمشاهدتها، والاستماع الى المقاتلة العنيفة... ففوجئوا بسيدة نحيلة، في منتصف العمر. لا يزال وجهها يحتفظ بجماله الهادئ... وكان لها تأثير السحر على الجمهور. ثم انتقلت الى عدة جامعات. وعادت في اواخر العام ١٩٠٩ مرتفعة المعنويات، لتواجه صراع ابنها مع الموت... وبقيت اسابيع، ترافق آلامه. وبوفاته انهارت صحتها. لكنها كانت تعلم، ان الحزن، لن يثنيها عن القضية. وكان العام ١٩١٠ فترة مهادنة لاعطاء اللجنة الحكومية فرصة اتخاذ القرار. وبالفعل أُقر حق الاقتراع للنساء اللواتي يملكن بيوتا، وعقارات يدفعن عنها ضريبة. لكن تنفيذ القرار بقي بعيدا...

* * *

سجل المجلس النسائي يوم الجمعة في ١٨ تشرين الثاني من العام ١٩١٠ يوما اسود لما لاقته السيدات من ضرب واهانة. وقد لجأن الى

رشق النوافذ الحكومية بالحجارة. واعتقلت مائتا امرأة اشعلن حرائق في صناديق البريد... ذلك ان اوامر جديدة صدرت اليهن بإلحاق اضرار بالمباني والاشياء مع تجنب اذى الاشخاص. وكانت **كريستابيل** تقود حملة مماثلة في **باريس**.. وبالطبع، عادت قصة الاعتقالات والسجون، وعوملت النساء في سجن **لندن** معاملة سيئة. فلجأن الى الاضراب عن الطعام مما دفع السلطة الى اطعام البعض بالقوة. وحين جاء دور **املين** تصدت للطبيب، وفي يدها ابريق فخار: «**اذا اقتربت خطوة سوف تضطرني الى الدفاع عن نفسي**»...

ولم تكن تبخل بتلك النفس لكي تنجح رفيقاتها، ويحققن النصر. وقد بلغ بها الإعياء أشدّه، كذلك مرضت ابنتها **سيلفيا**، ولم تعد تقوى على الوقوف، او مغادرة السرير. وسُمح للأم بأن تزورها قبل ان تنقل سؤالا للسلطة: «**اخبروني، ما هو ذنب المرأة التي تطالب بالاصلاح؟ مهما كان نوع العقاب، سأظل اسعى، ما دامت لي الطاقة البشرية على الاحتمال حتى النهاية.. لا اشعر مطلقا بتأنيب الضمير. واني اقوم بما يمليه علي الواجب**».

وحكم عليها القاضي، بعدما طلبت لها هيئة المحلفين الرحمة، بالسجن ثلاث سنوات. وسمعت في القاعة شهقة الجمهور: كيف يمكن هذه السيدة الناحلة، ان تتحمل؟...

اقتيدت الزعيمة الى سجنها وسط صرخات الرفيقات: «**العار... العار...**» وحملت على نغم انشودة النضال: «**اصرخن... اصرخن... ولتحمل صرخاتكن الرياح، لأن الفجر قريب...**»

وفي السجن عادت الى الاضراب عن الطعام وشعرت بقرب

النهاية؛ وفكرت في أن موتها قد يدفع القضية الى الامام.

بعدما انقضت تسعة ايام على صومها، زارها الحاكم وأخبرها بأنه سيفرج عنها لمدة اسبوعين، كي ترتاح، ثم تعود الى السجن... نظرت اليه نظرة احتقار ثم مزقت الامر وهي تردد: «**تعرف جيدا اني لن اطيع هذه الاوامر المخزية... لن اعود الى السجن طوعا**»...

ونُقلت الى مصح، وكانت تبدو خيال امرأة. وبدأت السلطة تمارس معها لعبة القط والفأر... تخرج من السجن، تتحسن صحتها فتُعاد اليه من جديد.. لكنها نجحت في صيف ١٩١٣ بمساعدة رفيقاتها، بأن تهرب الى **باريس**، حيث اقامت مع ابنتها **كريستابيل**. واكتشف رجال الشرطة مقرها، لكنهم لم يسعوا اليها اذ كانت في غاية الهزال. إنما لم يمنعها ذلك من السفر من جديد الى **اميركا**، حيث سبقتها اوامر **سكوتلنديارد** بمنعها من دخول البلاد لانها تشكل خطرا على السلامة العامة. ولما هددت بالاضراب عن الطعام، سمح لها بالدخول؛ وساندتها السيدات، ونظمن لها جولة جديدة من المحاضرات. ولما عادت الى بلادها كانت السفن المقاتلة في انتظارها. واقتيدت الى السجن. لتعاود الهرب، ثم العودة لتستسلم من دون مقاومة. ولم ترحم الشرطة وهن جسدها. ولم تتخل هي عن عنادها...

* * *

تقول كاتبة سيرتها **جوزفين كام** «**إنها دخلت السجن ثلاثين مرة على الاقل**».

* * *

مع بدء حرب ١٩١٤ تحولت **املين** من المقاتلة الشرسة الى المواطنة الواعية، واصدرت امرها الى الرفيقات: «**الانتصار في الحرب يأتي قبل انتصارنا في حق الانتخاب**» ودعتهن الى العمل، لمساعدة البلاد في الحرب. ودعاها **لويد جورج** الى اجتماع اعلن فيه عن حاجة البلاد الى مساعدة المرأة: «**لن ننتصر ما لم تساعدنا النساء في التموين والصناعة**»...

فردت بثقة: «**لن يكون ذلك صعبا**»...

وحولت الحملات المنظمة الى الهدف الايجابي. كذلك طلب منها **ونستون تشرشل** ان تمد الى الحكومة، يد العون. وكان هو و**جورج** وزيري التموين والحرب. وبفضل تنظيمها قامت النساء باعمال عظيمة. واهتمت هي شخصيا بأيتام الحرب. وكان تجاوبها بمثابة عقد صلح مع الحكومة. وفي ربيع العام ١٩١٧ وكان **لويد جورج** قد اصبح رئيسا للحكومة؛ دعاها الى مقره وابلغها أنه تقرر اعطاء حق الاقتراع للنساء فوق السن الثلاثين. واصبح القرار ساري المفعول في العام التالي، انما من دون احتفالات، اذ كانت القلوب متألمة بسبب الحرب. وقد انصرفت الى دراسة الاوضاع القانونية للمرأة. كما دعت الى ترشيح اول دفعة نسائية لمجلس العموم، وقد نجححت واحدة من اصل سبع عشرة مرشحة.

وطلب منها حزب المحافظين ان تترشح للمجلس، فنضت عنها الوهن، وشرعت بحملة انتخابية ارهقتها، وألزمتها السرير. وكانت تفكر في أنها ستشفى وتتابع الحملة، لكن المنية وافتها في ١٤ حزيران عام ١٩٢٨ . اي قبل شهر من ميلادها السبعين، وقبل ان يبلغها نبأ

انتصار تحقق في الثاني من تموز، ويقضي بحق الاقتراع لمن هن فوق الحادية والعشرين.

* * *

تمثالها يقوم حاليا في حدائق برج **فيكتوريا** حيث كان معظم تظاهراتها، وقد ازاح عنه الستار في حفلة رسمية، رئيس الوزراء **ستانلي بولدوين** في السادس من آذار، عام ١٩٣٠ . وكان بين الحضور جمهور من السياسيين الذين كانوا اعداءها بالامس. ومما قاله بولدوين: «**اننا اليوم حلفاء ومهما كان المستقبل، فقد شيّدت لنفسها شهرة تخلدها. لقد كانت مثالا للشجاعة والبطولة وصلابة الموقف..**»

ونحن وان كنا لا نؤمن بعنفها، فاننا لا نستطيع الا أن نعترف بشجاعتها وبفضلها على الحركة النسائية في العالم.

- الموسوعة البريطانية.
- حياة املين بانكهورست - كتبتها ابنتها سيلفيا بانكهورست.
- قصتي الذاتية - ١٩١٤ .

سلمى لاغرلوف



«كانت جدتي فاتحة النافذة الاولى لتدخل القصة حياتي، ثم تابعت سرد حكاياتها لي، حتى بعد موتها».

حين ولدت **سلمى أوتيليا لوفيز لاغرلوف**، في مزرعة **مورباكا** من مقاطعة **فارملاند**، كان الظلام يخيم على نُهُرِ بلادها، **السويد**، كما يحدث في شتاء كل سنة. وكانت أيام الخريف قد رحلت، مخلفة مكانها لرياح الشمال القاسية... للعواصف التي تصفع وجه السهول الفسيحة، وتحولها إلى مدى ابيض، لا يحده النظر.

كان ذلك في ٢٠ تشرين الثاني من العام ١٨٥٨ .

* * *

انحدرت **سلمى** من سلالة عريقة: فأبوها **إيريك غوستاف لاغرلوف**، ذو رتبة عالية في الجيش. وأمها من أسرة أنجبت عدداً من الفنانين والكهنة الذين أغنوا المقاطعة بعطائهم الفكري، والروحي عبر ثلاثة قرون.

وقد عاشت الكاتبة في مقاطعة **مورباكا** الزراعية، الشديدة المحافظة على التقاليد، الغنية بالخيرات والمنعزلة عن العالم الخارجي، خصوصاً في فصل الشتاء، حين لا يعود يصلها سوى الضيوف الذين يقصدون **الملازم غوستاف**، فيجدون في دارته الضيافة السخية، والأطعمة الشهية، والمعشر الطيب.

كانت **سلمى** صغرى الاخوة والأخوات. فقد ولد لأسرة **لاغرلوف** ولدان، ثم جاءت **آن** الأخت الكبرى، ذات الجمال الباهر، وطفلة ثانية توفيت باكراً، وبعدها أطلت **سلمى** تملأ فراغاً خلفته.

ونتوقف عند المحطة الأولى من حياة الكاتبة: طفولتها.

كانت طفولة غير عادية، أثرت عليها، وحولتها نحو منابع الوحي والتأمل، كما جعلتها تركز على صقل الفكر والروح، موهبتها الكبرى... ذلك أن **سلمى** أصيبت في طفولتها بنوع من الشلل، حرمها الوقوف والسير على قدميها، كغيرها من أطفال العائلة والجيران، فكانت تشارك رفاقها مرحهم ولعبهم، بالنظر، وهي متعلقة بعنق مربيتها.

في تلك المرحلة المبكرة اكتشفت أن وضعها الخاص، يستدر العطف، ويلفت انتباه المحيطين بها، ولا سيما انتباه والديها اللذين بذلا أقصى الجهد، كي ينقذاها، وراحا يبحثان عن وسائل الشفاء في كل صوب.

* * *

كانت **سلمى** في الخامسة من عمرها حين جاء من ينصح والدها بأن يرسلها إلى الحمامات المعدنية، طلباً للشفاء. وأخذ الأب بالنصيحة، فأرسلها لتقيم مع أسرة قريبه **القبطان سترونبورغ** على الشاطئ الغربي من **السويد**.

وفي يوم، جلست زوجة القبطان، تروي للطفلة عن مغامرات زوجها، وأسفاره إلى الجزر البعيدة، وحكت لها عن طائر الجنة، الذي أحضره من إحدى تلك السفرات... أثار الخبر حماسة الطفلة، فراحت تطالب بمشاهدة ذلك الطائر، واستجابت السيدة لطلبها، فأرسلتها، إلى السفينة، حالما رست في الميناء. ولما رفعها أحد البحارة، ووضعها فوق الدكة، أخذت تمشي، ناسية عاهتها، وعيناها تبحثان

عن العصفور الرائع. وكانت تلك خطوتها الأولى المعافاة. إلا أن الضعف في ساقها اليسرى لازمها مدى حياتها، كما رافقتها مظاهر عرج بسيط.

وكان لهذه العاهة أثر كبير على طفولة الكاتبة، خصوصاً أن أختها **آنا** كانت فتاة جميلة، تجعل **سلمى** عادية، وغير مثيرة للاهتمام.

ومن حظ **سلمى** أنها نعمت بطفولة سعيدة، جعلتها تحول الشعور بالنقص، في اتجاه إيجابي، فراحت تسعى لتعوض مِمَّا حرمتها منه الطبيعة، وذلك عن طريق الاجتهاد والتفوق الفكري...

* * *

المحطة الثانية في حياة الكاتبة هي مرحلة المراهقة، وكانت ذات أهمية في تكوين شخصيتها، إذ بدأت مواهبها تتفتح، خصوصاً شاعريتها. كما أن القصص والحكايات والتقاليد التي اختزنتها ذاكرتها، منذ الطفولة، بدأت تتجلى وتكسب معانيها، مما دفع الفتاة الى أن تغوص في محيطها الثري، بحثاً عن المزيد من كنوز تربطها بأرضها الغالية.

في هذه الفترة، بدأت تكتب قصائدها الأولى، وتجرب مقدرتها القصصية والروائية...

أما المحطة الثالثة فهي فترة النضج، والاتجاه نحو إثبات الشخصية والمقدرة الفنية، وقد تخلت عن كتابة الشعر، إلا أن أسلوبها ولغتها المنثورة كانا ينضحان بالشاعرية ورهافة الحس، ودقة الملاحظة، ويعبران عن أسمى العواطف الإِنسانية.

وكان يغلّف قصصها خيال ساحر، رافقها في كل ما كتبت، كما أن قصتها مدت جذورها إلى أعماق الأسطورة الشعبية، التي سحرتها طفلة، وأغنت أدبها، وعمقت معناه. كذلك أكتسبت كتابة **لاغرلوف** قيمة هامة من ارتباطها بشعبها، بالإنسان والأرض، على الأخص الإنسان البسيط الذي ظل، في كل ما كتبت، دعامة قوية...

* * *

وتكاد حياة هذه الكاتبة، تكون واحدة من القصص الكثيرة التي كتبت، إذ حاولت، عبر كل خطوة منها، أن تذلل العقبات التي اعترضتها، مؤكدة إيمانها بمقدرة الإنسان على الوقوف في مواجهة قدره، ليتغلب عليه، ويظهر تفوقه وعظمته.

وتميزت كتابتها بسعة الخيال والارتباط بالأرض والشعب، وبالايمان الديني والوطني والإنساني. وكان لنزعتها التربوية، تأثير في اعمالها، وظل المستقبل غايتها ومدار اهتمامها، بقدر ما كان الماضي نقطة انطلاقها، وتأصل جذورها.

تأثرت **سلمى** بحكايات جدتها إلى حد بعيد. وتصور تلك الجدة في إحدى مقالاتها فتقول: «**كانت جدتي فاتحة النافذة الأولى لتدخل القصة حياتي، وقد تابعت سرد حكاياتها لي، حتى بعد موتها**».

* * *

عاشت **سلمى** في المزرعة حتى جاوزت سنوات المراهقة، حين جاء من ينصح والدها بأن يرسلها إلى دار المعلمات في **استوكهولم** كي

تتدرب، فتصبح مدرسة... ولما أنهت فترة التدريب، وعادت إلى البيت، كان والدها مريضاً، والعائلة ترزح تحت دين ثقيل، لذا انتقلت إلى مدينة **سكاين** حيث اشتغلت فترة في التدريس، حتى إذا فرغت من واجباتها، جلست تكتب شعراً. وكانت تقرأ تلك القصائد على زميلاتها، فيشجعنها على متابعة سيرها في طريق الأدب.

وفي يوم أرسلت إحدى زميلاتها مجموعة من تلك القصائد، إلى **البارونة صوفي أدليسبار** مديرة مجلة «**دوغني**» الأدبية، وكانت **البارونة** من نساء **السويد** البارزات، وصاحبة صالون أدبي. فاختارت أربع قصائد **لسلمى**، ونشرتها في مجلتها، ثم أرسلت تدعوها لتقضي إجازة الميلاد في قصرها. وكانت التجربة مهمة للأديبة الشابة، أعادت إليها الثقة بنفسها، وانتزعت منها حزناً أَلَمَّ بها، على اثر ما أصاب عائلتها من عوز، اضطرت معه إلى بيع المزرعة والبيت في **مورباكا**، مسقط رأسها، ومخزن ذكرياتها. وفي هذه الفترة توفيت جدتها، مخلفة لحفيدتها الحكايات والأساطير، وذكريات الحضن الدافئ.

ويبدو أن النجاح يخلق للمرء العداء، من دون سعي منه. وهذا ما حصل **لسلمى**. فبينما كانت **البارونة** ترحب بها، وتبدي إعجابها بأدبها، رفضت إدارة تحرير المجلة أن تنشر قصصها، وطلبت إليها أن تتريث في النشر، وتوسع افقها بالمطالعة.

ولحسن الحظ، أن **سلمى** كانت قد وصلت إلى مرحلة النضج، وباتت تعرف ما تريد، وتقدر قيمة اعمالها. لذا، لم تُفسح لتلك الآراء، أن تعيق مسيرتها، فتابعت تأليف روايتها الأولى «**قصة غوستا برلنغ**» إلى جانب كتابة القصة القصيرة، التي لفتت أنظار النقاد، إذ

وجدوا، في ما تكتبه، أسلوباً جذاباً، جديداً، ومتفوقاً، إلى جانب موهبة أصيلة في سرد القصة.

* * *

أول جائزة نالتها **سلمى** على واحدة من قصصها كانت عام ١٨٩٠ . أما الرواية الأولى فظهرت بعد ذلك التاريخ بعام واحد، ولم تلق النجاح الذي توقعته المؤلفة، لكنها لم تستسلم لليأس، بل تابعت كتابة القصة القصيرة، وجاءها التقدير والاعتراف بموهبتها، من **الدانمارك**، حين قرأ أحد الكتّاب المشهورين، هناك، قصصها وكتب مقالاً طويلاً يمتدحها ويبشر بولادة موهبة قصصية عظيمة.

ومن هنا، بدأت انطلاقتها الموفقة، وفتحت في وجهها أبواب النجاح، فمضت تكتب، وتتلقى إعجاب القراء والنقاد في بلادها، وتحلم بالسفر.

وتحقق الحلم عام ١٨٩٥، إذ سافرت برفقة صديقتها **صوفي ألكان** وهي كاتبة قصة تاريخية، أصبحت، فيما بعد، رفيقة **سلمى** في رحلاتها الكثيرة...

* * *

رحلتها الأولى كانت إلى **إيطاليا واليونان**، حيث تجولت برفقة **صوفي** بين المعالم الحضارية والتاريخية، واستلهمت من رحلتها هذه، أفكاراً لكتابها الثالث «**عجائب المسيح الدجال**». ولاقى الكتاب نجاحاً تخطى نجاحها في كتابيها السابقين.

ثم عاودها الحنين إلى السفر، عام ١٨٩٩، فسافرت مع **صوفي** إلى **مصر**، ومنها انتقلتا إلى **القدس**، لتزورا الأرض المقدسة، وتتعرفا إلى

جالية أميركية وأوروبية، تحج إلى المدينة المقدسة وتحيا حياة المسيحيين الأول.

وكانت صحف **السويد** قد نشرت أخبار هذه الجالية وانضمام أربعين سويدياً إليها.

* * *

الرحلة كانت في غاية الأهمية بالنسبة إلى الكاتبة، فراحت تنقل خطاها فوق أرض قدستها خطى **المسيح**.

كما سجلت انطباعاتها عن الحياة التي يعيشها الحجاج وسكان البلاد. وظهرت تلك الانطباعات في مؤلفاتها التالية: «**القدس**» (جزآن) و«**قصص المسيح**». وزادت شهرة الكاتبة، بعدما ترجمت كتبها إلى عدد من اللغات الأوروبية، كما طلبت منها جمعية المعلمين الوطنية، أن تؤلف كتاب قراءة للأولاد، فوضعت أشهر كتبها، «**مغامرات نيلز هلغرسون**» وكان ثورة في مفهوم الكتاب التربوي.

سافرت **سلمى** الى كل بقاع **السويد**، لتجمع المعلومات الوافية عن القصص والأساطير التي ضمنتها كتابها، ورسمت عبره، بالكلمات العذبة، والقصص الرائعة، خريطة جغرافية لبلادها.

وتنطلق فكرة هذا الكتاب من الحلم. **فنيلز هلغرسون**، الصبي الكسول، الخامل، والمحدود المعطيات، يتحول إلى مغامر كبير، على الرغم منه، إذ تقوده المصادفة إلى التعلق بظهر أوزة برية، عائدة من رحلة الهجرة إلى البلاد الجنوبية، وعلى جناحي تلك الأوزة، ينتقل الصبي من مغامرة مدهشة إلى أخرى تذهله، ويتعرف إلى كل زاوية في بلاده.

وما كاد الكتاب يبصر النور، حتى تسابقت إلى ترجمته دور النشر خارج **السويد** وترجم تقريباً إلى لغات الأرض جميعا...

* * *

من نجاح إلى نجاح تنتقل **سلمى لاغرلوف**، لتصبح عضواً في جمعية الفنون والعلوم في **غوتنبرغ** وقد سرّت بانتخابها، خصوصاً وأنها المرأة الوحيدة في تلك الجمعية، واعتبرت هذا النجاح خطوة جديدة في سبيل إشراك المرأة في النشاط البنّاء.

بعد صدور «**مغامرات نيلز**» منحتها جامعة **أوبسالا** لقب دكتوراه فخرية في الأدب. ومنحتها الأكاديمية السويدية الميدالية الذهبية عام ١٩٠٤ . ثم عادت الأكاديمية ذاتها فانتخبتها أول امرأة بين أعضائها، وذلك عام ١٩١٤ .

إنما انتصارها الأهم كان فوزها **بجائزة نوبل**، عام ١٩٠٩، واستطاعت **سلمى** أن تحقق، بواسطة هذه الجائزة، حلمها باسترجاع مزرعة الأجداد **مورباكا**. أي أنها استعادت مهد الطفولة، وتراث العائلة. وكان لهذا الحدث أثر كبير في حياتها، وكتابتها، إذ إن **مورباكا** لم تكن في نظرها البيت وحسب، إنما الحضن الذي لم تجد دفئاً واستقراراً بعيداً عنه.

يمكننا أن نفهم معنى ذلك، حين نتعمق في دراسة شخصية الكاتبة، وحياتها، وارتباطها بالأرض والتقاليد، بل تقديسها تلك الأرض والإنسان البسيط، والخيط السحري الذي يشد الماضي إلى الحاضر، لينفذ، من خلاله، إلى المستقبل الأفضل...

والمرحلة التالية زاخرة بالإِنتاج، إذ استطاعت الكاتبة أن تصدر كتاباً كل سنة.

لكن نشوب الحرب العالمية الأولى كان صدمة أثرت في نفس **سلمى** وأعمالها تأثيراً بالغاً. فقد تابعت الكتابة في المرحلة الأولى من الحرب، لكنها لم تلبث أن توقفت عن العمل...

وفي هذه الفترة (أي عام ١٩١٥) توفيت والدتها. لكن الكاتبة لم تقف مكتوفة اليدين أمام الكوارث التي نتجت عن الحرب، بل نهضت تساعد في إغاثة البؤساء مشردي الحرب. وجعلت تأملاتها وتجاربها في كتاب «**المنبوذ**» الذي شاءته رسالة إلى العالم، ليفهم دعوتها إلى نبذ الحروب، والسعي الى إحلال السلام والمحبة بين بني البشر.

* * *

ظل عطاء الكاتبة يزداد مع كل خطوة حملتها في دروب العمر. ولم تتوقف عن الكتابة حتى بعدما بلغت الثمانين من العمر. وكان لها فضل كبير على مجتمعها، والمرأة في بلادها والعالم، فهي لم تكتب من برج عاجي، بل شاركت الناس قضاياهم المصيرية، ومشاكلهم اليومية البسيطة. وكان قلمها دائم السعي، من أجل خلق عالم أفضل، ومسح الدمع عن عيون البؤساء، وبلسمة الجراح وغرس الفرح في النفوس الحزينة.

سلمى لم تتزوج، إلا أن حياتها كانت غنية بالصداقات الطيبة، ونعمت بتقدير شعبها وقرائها، وحتى النقاد، اعتبروها من الكتّاب

الذين أضافوا مدماكاً إلى بناء الأدب السويدي، وفتحوا أبواباً جديدة أمام الأجيال التي تلت.

* * *

وحين توفيت الكاتبة، عام ١٩٤٠، كانت قد وصلت إلى ذروة العز والشهرة، والرضى النفسي الذي يحصده المبدع ثمرة العطاء الكبير.

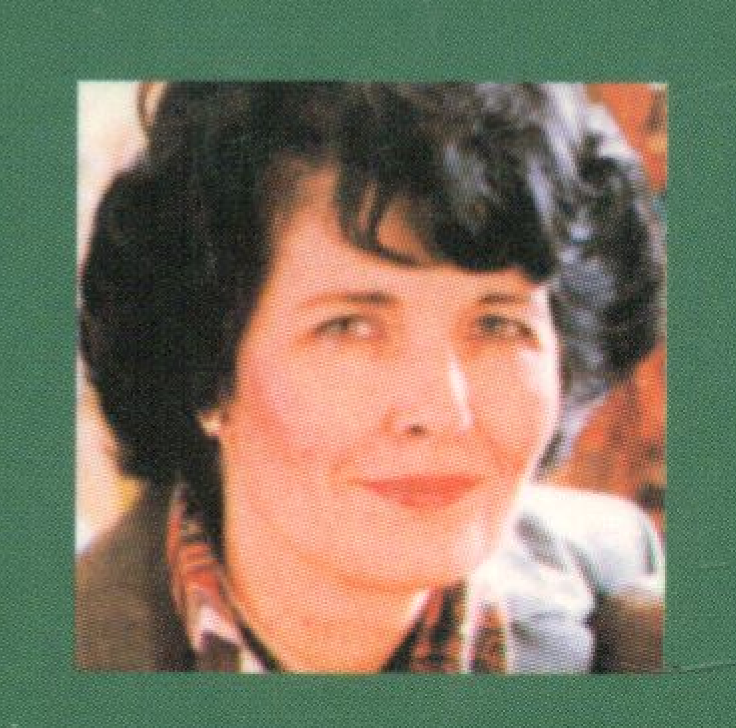
وعندما اغمضت عينيها المجهدتين، كانت نفسها في غاية الراحة، وربما رددت شفتاها، وهما ترتعشان، للمرة الأخيرة، قولها: «**نحن الأسرى، والأموات أحرار**».

وفي العام ١٩٤٢، أي بعد مرور عامين على وفاتها، فتحت أبواب دارتها في **مورباكا** ليزورها السياح، ومحبو أدبها من شتى أقطار الكون.

وصدر، لهذه المناسبة، كتاب مصور يروي سيرة **سلمى**، أو «**ملكة الأدب السويدي**».

- قصة سلمى لاغرلوف مصورة - منشورات وزارة الثقافة السويدية.
- مجموعة مقالات من أرشيف السفارة السويدية في بيروت.

فهرس



تُقدم فُصول هذا الكتاب، بأجزائه الستّة، وجوهاً لنساءٍ رائدات، من الشرق ومن الغرب. وقد اخترتها بقصد تسليط الضوء على ما مرت به المرأة، عبر العصور، من صراع مع نفسها، ومع محيطها، في سبيل إنماء طاقاتها، وتحقيق طموحها وأحلامها، وبالتالي، بلوغ الرتبة الرفيعة التي استحقتها.

وإذ أضع، بين أيدي قُرّاء العربية، هذه النماذج المتغلّبة والمتفوقة من النساء، أتوخى ان تكون كل واحدة من رائدات الأمس، مشعل هداية وإلهام لرائدات الغد.

ا. ن.



نساء رائدات (١) من الشرق
نساء رائدات (٢) من الشرق
نساء رائدات (٣) من الشرق
نساء رائدات (٤) من الغرب
نساء رائدات (٥) من الغرب
نساء رائدات (٦) من الغرب